

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١١٩)

التعليق على ميمية ابن القيم

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١١٩)

التعليق على ميمية ابن القيم

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

التعليق على ميمية ابن القيم./ محمد بن صالح العثيمين. ـ الرياض، ١٤٢٩هـ.

٧٢ ص، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٦ ـ ٠٠ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ الوعظ والإرشاد ـ شعر ٢ ـ العقيدة الإسلامية

أ. العنوان

ديوي ٠٦٢٠٠٩, ٨١١ ١٤٢٩/٥٣٥٢

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٥٣٥٢

ردمك: ٦ ـ ٠٠ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى: رمضان ١٤٢٩هـ

يطلب الكتاب من:

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

القصيم-عنيزة ٥١٩١١ ص.ب ١٩٢٩

هاتف ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ فاكس ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩ جوال ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.binothaimeen.com E.mail: info2@binothaimeen.com

مقدمة اللجنة العلمية

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسئيات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلقد كان من الدروس العلمية الكثيرة المتنوعة الزاخرة بالفوائد والمواعظ التي كان يعقدها صاحب الفضيلة العلامة شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى في جامعه بمدينة عنيزة: شرحُ المنظومةِ الميميَّة للعلامة الحافظ شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي بكر ابن قيم الجوزية(١) (المتوفى عام ٧٥١هـ) تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا.

---

(١) ترجم له الكثيرون، انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ـ رحمه الله ـ، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ، البدر الطالع للشوكاني ـ رحمه الله ـ، وغيرهم.

وإنفاذا للقواعد والتوجيهات التي قررها صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين لإخراج تراثه العلمي عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى الشيخ مساعد بن عبدالله السلمان ـ أثابه الله ـ بالعمل لإعداد هذا الشرح للطباعة فجزاه الله خيرا.

وليَعلم القارئ الكريم بأنه يوجد اختلاف في عدد أبيات هذه المنظومة بين النسخ المطبوعة التي أوردتها، وإنما أثبتنا ما قرئ في تلك الدروس المعقودة لشرحها.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويجزي صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين عن الإسلام والمسلمين خيرا، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٤٢٩/٥/٢٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

متن القصيدة الميمية[١]

قال العلامة الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية تغمده بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته:

١ إذا طلعتْ شمسُ النَّهار فإنَّها   أَمَارةُ تَسْلِيمي عَلَيْكمْ فسَلِّموا
٢ سَلامٌ مِنْ الرَّحْمنِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ   وَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَفَضْلٌ وَأَنْعُمُ
٣ عَلى الصَّحبِ والإخوانِ الولدِ والأُلى   دَعَوْهُمْ بِإحْسَانٍ فَجَادُوا وأنعَمُوا
٤ وَسَائِرِ مَنْ للسُّنَّةِ المَحْضَةِ اقْتَفَىٰ   وَمَا زَاغَ عَنْهَا فَهو حَقاً مقدَّمُ
٥ أُولئكَ أَتْبَاعُ النبِيِّ وَحِزْبُهُ   وَلَوْلاهُمُ مَا كَانَ في الأرْضِ مُسْلِمُ
٦ لَولاهُمُ كَادَتْ تَمِيدُ بَأَهْلِهَا   وَلَكِنْ رَوَاسِيهَا وَأَوْتَادُهَا هُمُ
٧ وَلَوْلاهُمُ كَانَتْ ظَلاماً بَأَهْلِهَا   وَلَكِنْ هُمُ فِيهَا بُدُورٌ وَأَنْجُمُ
٨ أُولئِكَ أَصْحَابِي فَحَيَّهلا بِهِم   وَحَيَّهَلا بِالطَّيِّبِينَ وأَنْعِمُ
٩ لِكُلِّ امرِئٍ مِنْهُمْ سَلامٌ يَخُصُّهُ   يُبَلِّغُهُ الأدْنَى إِلَيْهِ وَيَنْعَمُ
١٠ فَيَا مُحْسِناً بَلِّغْ سَلامِي وَقُلْ لَهُمْ   مُحِبُّكُمُ يَدْعو لَكُمْ وَيُسَلِّمُ
١١ وَيَا لائِمِي فِي حُبِّهِمْ وَوَلائِهِمْ   تَأَمَّلْ هَدَاكَ الله مَنْ هُوَ أَلْوَمُ
١٢ بَأَيِّ دَلِيلٍ أَمْ بَأَيَّةِ حُجَّةٍ   تَرَى حُبَّهُمْ عَاراً عَليَّ وَتَنْقِمُ
١٣ وَمَا العَارُ إلا بُغْضُهُمْ وَاجْتِنَابُهُمْ   وَحُبُّ عِدَاهُمْ ذَاكَ عَارٌ وَمَأْثَمُ
١٤ أَمَا وَالذِي شَقَّ القُلوبَ وَأَوْدَعَ الـ   ـمَحَبَّةَ فِيها حَيْثُ لا تَتَصَرمُ
١٥ وَحَمَّلَهَا قَلْبَ المُحِبِّ وَإِنَّهُ   لَيَضْعُفُ عَن حِمْلِ القَمِيصِ وَيَأْلَمُ
١٦ وَذَلَّلَهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ لِصَوْلَةِ الـ   ـمَحَبَّةِ لا تَلْوَى وَلا تَتَلَعْثَمُ

---

(١) هذا هو المتن الذي قرئ في الدرس، ويلاحظ وجود اختلاف في عدد الأبيات بين النسخ المطبوعة التي أوردت متن القصيدة.

١٧ وَذَلَّلَ فِيهَا أَنْفُساً دونَ ذُلِّهَا حِيَاضُ المَنَايَا فوْقَهَا وَهِيَ حُوَّمُ
١٨ لأَنْتُمْ عَلى قُرْبِ الدِّيارِ وَبُعْدِهَا أَحِبَّتُنَا إنْ غِبْتُمُ أو حَضَرْتُمُ
١٩ سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ مَحَبَّةَ صَبٍّ شَوْقُهُ لَيْسَ يُكْتَمُ
٢٠ وشاهدُ هذا أنَّها في هبوبِها تكادُ تَبُثُّ الوجدَ لو تَتَكلَّمُ
٢١ وكنتُ إذا ما اشتدَّ بي الشوقُ والجوى وكادتْ عرى الصبر الجميل تَفصَّمُ
٢٢ أعللُ نفسي بالتلاقي وقربهِ وأوهمُها لكنَّها تتوهَمُ
٢٣ وأُتْبِعُ طرفي وِجْهَةً أنتمُ بها فلي بحماها مربعٌ ومخيَّمُ
٢٤ وأذكر بيتاً قاله بعضُ من خلا وقد ضلَّ عنه صبرُه فهو مُغْرمُ
٢٥ أسائلُ عنكم كلَّ غادٍ ورائحٍ وأُومِي إلى أوطانِكم وأُسلمُ
٢٦ وكمْ يصبرُ المشتاقُ عمَّنْ يحبُّه وفي قلبهِ نارُ الأَسَى تتضرَّمُ
٢٧ أما والذي حجَّ المحبون بيتَه ولبّوا له عند المُهَلِ وأحرَمُوا
٢٨ وقد كشفوا تلك الرؤوسَ تواضعاً لعزةِ من تعنوا الوجوه وتُسلِمُ
٢٩ يُهلون بالبيداءِ لبيك ربنا لك الملك والحمد الذي أنت تَعلمُ
٣٠ دَعاهُم فلبَّوه رضاً ومحبةً فلما دعوهُ كان أقرب منهُمُ
٣١ تراهم على الأنضاءِ شعثاً رؤوسُهم وغبراً وهمْ فيها أَسَرُّ وأَنْعمُ
٣٢ وقد فارقوا الأوطانَ والأهلَ رغبةً ولم يثنيهم لذاتُهم والتنعّمُ
٣٣ يسيرون من أقطارها وفجاجِها رجالاً وركباناً ولله أسلَمُوا
٣٤ ولما رأت أبصارهم بيتَه الذي قلوبُ الورى شوقاً إليه تَضَرَّمُ
٣٥ كأنهمُ لم ينْصَبُوا قطُّ قبلَه لأنَّ شقاهُمْ قد ترحَّلَ عنهُمُ
٣٦ فاللّه كَمْ مِنْ عَبْرَةٍ مُهْرَاقَة وأخرى على آثارِها لا تَقَدَّمُ
٣٧ وقد شَرِقَتْ عينُ المحبِ بدمْعِها فينظر من بين الدُّموع ويُسْجِمُ
٣٨ إذا عايَنَتهُ العينُ زالَ ظلامُها وزالَ عن القلبِ الكئيبِ التألُمُ
٣٩ ولا يعرف الطرفُ المعاينُ حسنَه إلى أن يعودَ الطرفُ والشوقُ أعظَمُ
٤٠ ولا عَجَبٌ مِنْ ذا فحين أضافَه إلى نفسه الرحمنُ فهو المعظم

٤١ كساهُ من الإجلال أعظمَ حلّةٍ عليها طرازٌ بالمَلاحَةِ مُعلَمُ
٤٢ فمنْ أجلِ ذا كلُ القلوبِ تحبُه وتخضَعُ إجلالاً له وتعظِّمُ
٤٣ وراحوا إلى التعريفِ يرجون رحمةً ومغفرةً ممَّنْ يجودُ ويكرمُ
٤٤ فاللهِ ذاك الموقفُ الأعظمُ الذي كموقفِ يومِ العرضِ بل ذاكَ أَعْظَمُ
٤٥ ويدنو به الجبارُ جلَّ جلالُه يباهي بهمْ أملاكَه فهو أَكْرَمُ
٤٦ يقولُ عبادي قد أتوني محبةً وإني بهم برٌّ أجودُ وأَرْحمُ
٤٧ فأشهدُكم أني غفرتُ ذنوبَهم وأعطيتُهم ما أَمَّلوهُ وأَنْعَمُ
٤٨ فبُشْرَاكُمُ يا أهلَ ذا الموقفِ الذي به يَغْفِرُ اللهُ الذنوبَ ويَرْحَمُ
٤٩ فكم مِنْ عتيقٍ فيه كُمِّلَ عِتْقهُ وآخر يُسْتَسْعى وربُك أَرْحَمُ
٥٠ وما رؤي الشيطانُ أغيظَ في الوَرَى وأحقرَ منه عندَها وهوَ ألأمُ
٥١ وذاكَ لأمرٍ قدْ رآه فغاظَهُ فأقبلَ يحثو التُرْبَ غيظاً وَيلْطِمُ
٥٢ لِمَا عايَنَتْ عيناه مِنْ رحمةٍ أتتْ ومغفرةٍ منْ عندِ ذي العرشِ تُقْسَمُ
٥٣ بَنَى ما بَنَى حتى إذا ظنَّ أنَّهُ تمكّنَ من بُنْيانِه فَهْوَ مُحْكَمُ
٥٤ أتى اللهُ بنياناً له مِنْ أَسَاسِهِ فَخَرَّ عليهِ سَاقِطاً يتهَدَّمُ
٥٥ وكَمْ قَدْرُ ما يعلوُ البناءُ وينتَهي إذا كانَ يبنيهِ وذو العرش يَهْدِمُ
٥٦ ورَاحُوا إلى جَمْعٌ فباتُوا بمَشْعرِ الْـ حَرَامِ وصَلُّوْا الفَجْرَ ثم تقدَّمُوا
٥٧ إلى الجمرةِ الكبرى يُريدون رَمْيَها لوقتِ صلاةِ العيدِ ثم تَيَمَّمُوا
٥٨ منازلَهم للنحرِ يبَغُونَ فضلَه وإحياءَ نُسْكٍ مِنْ أبيهم يُعَظَّمُ
٥٩ فلو كانَ يُرضي اللهَ نحرُ نفوسِهم لدانُوا به طَوْعاً وللأمر سَلَّمُوا
٦٠ كما بَذلوا عندَ الجهادِ نحورَهم لأعدائِه حتى جَرَى مِنْهُمُ الدمُ
٦١ ولكنهم دانُوا بوضعِ رؤوسِهم وذلَك ذلٌّ للعبيدِ ومِيْسَمُ
٦٢ ولما تقضّوا ذلك التَفَثَ الذي عليهم وأوفَوا نذرَهم ثم تَممَّوا
٦٣ دَعَاهُم إلى البيتِ العتيقِ زيارةً فيا مرحباً بالزائرين وأكْرَمُ
٦٤ فَلِلهِ ما أَبْهَى زيارتَهمْ له وقد حَصَلَتْ تلك الجوائزُ تُقسمُ

٦٥	ولله إفضالٌ هناكَ ونِعْمةٌ	وبِرٌّ وإحسانٌ وجودٌ ومَرْحَمُ
٦٦	وعادُوا إلى تلكَ المنازلِ مِن مِنَى	ونالُوا مُنَاهُم عندَها وتَنَعَّمُوا
٦٧	أقامُوا بها يوماً ويوماً وثالثاً	وأُذنَ فيهِمْ بالرحيلِ وأُعْلِمُوا
٦٨	وراحُوا إلى رمي الجمارِ عشيةً	شعارهُمُ التكبيرُ واللهُ مَعْهُمُ
٦٩	فلو أبصرتْ عيناكَ موقفَهم بها	وقد بَسَطوا تلك الأكفِ ليُرحَموا
٧٠	ينادونَه ياربُّ يارَبُّ إننا	عبيدُك لا ندعو سِواك وَتَعْلَمُ
٧١	وها نحنُ نرجو منك ما أنتَ أهلُه	فأنت الذي تُعْطي الجزيلَ وتُنْعِمُ
٧٢	ولما تَقضّوا من منىً كلَّ حاجةٍ	وسالتْ بهم تِلكَ البطاحُ تَقَدَّمُوا
٧٣	إلى الكعبةِ البيتِ الحرامِ عشيةً	وطافوا بِهَا سَبْعاً وصَلَّوا وسَلَّمُوا
٧٤	ولما دنا التوديعُ منهم وأيقنوا	بأنَّ التَدَانِيْ حَبلَهُ مُتَصَرِّمُ
٧٥	ولم يبقَ إلا وقفةٌ لمودعٍ	فللهِ أجفانٌ هناكَ تُسَجَّمُ
٧٦	ولله أكبادٌ هنالكَ أُودِعَ الـ	ـغرامُ بها فالنارُ فيها تَضَرَّمُ
٧٧	ولله أنفاسٌ يكادُ بحرِّها	يذوبُ المحبُ المستهامُ المُتَيَّمُ
٧٨	فلم تَرَ إلا باهِتاً مُتَحيِّراً	وآخَر يُبْدي شجوَهُ يترنَّمُ
٧٩	رحلتُ وأشواقي إليكم مقيمةٌ	ونارُ الأسى مِني تُشبّ وتُضرَمُ
٨٠	أودّعُكم والشوقُ يثْنِي أعنّتي	وقلبيَ أمْسَى في حِماكُمْ مُخَيِّمُ
٨١	هُنالك لا تَثْريبَ يوماً على امرئٍ	إذا ما بَدا منه الذي كانَ يَكْتُمُ
٨٢	فيا سائقينَ العيسَ باللهِ ربِّكم	قِفُوا لي على تلكَ الربوعِ وسلِّموا
٨٣	وقولوا مُحبٌّ قادَه الشوقُ نحوَكم	قضَى نحبَه فِيكم تَعِيشُوا وَتَسْلَمُوا
٨٤	قضى اللهُ ربُّ العَرْشِ فيما قضَى به	بأنَّ الهوى يُعْمِي القلوبَ وَيُبْكِمُ
٨٥	وحبُّكُم أصلُ الهدى ومدارُه	عليه وفوزٌ للمحبِ وَمَغْنَمُ
٨٦	وتَفْنَى عظامُ الصَّبِّ بعدَ مَمَاتِهِ	وأشواقُه وَقْفٌ عليه مُحَرَّمُ
٨٧	فيا أيُّها القلبُ الذي ملكَ الهَوَى	أزمتَه حتى مَتَى ذَا التَلوّمُ
٨٨	وَحَتَّامَ لا تَصْحُو وقد قَرُبَ المَدى	ودُنَّتْ كؤوسُ السيرِ والناسُ نُوَّمُ

٨٩ بلى سوفَ تَصْحُو حين ينكشفُ الغَطَا ... ويبدو لك الأمرُ الذي أنتَ تَكْتُمُ
٩٠ ويا موقِداً ناراً لغيرِكَ ضَوْؤُهَا ... وَحرُّ لظَاهَا بَيْنَ جَنْبَيكَ يُضْرَمُ
٩١ أهذا جنَى العلمِ الذي قد غرسْتَهُ ... وهذا الذي قد كنتَ ترجُوهُ يُطْعِمُ
٩٢ وهذا هو الحظُ الذي قد رَضِيْتَهُ ... لنفسكَ في الدارين جَاهٌ ودِرْهَمُ
٩٣ وهذا هو الربحُ الذي قد كسبتَهُ ... لعمرُكَ لا ربْحٌ ولا الأصلُ يُسْلَمُ
٩٤ بخلتَ بشيء لا يَضُرُّك بذلُهُ ... وجُدْتَ بشيءٍ مثلُه لا يُقَوَّمُ
٩٥ بَخِلتَ بذا الحظِ الخسيسِ دَنَاءَةً ... وجُدْتَ بدارِ الخُلْدِ لو كنتَ تَفْهَمُ
٩٦ وبِعتَ نعيماً لا انقضاءَ له ولا ... نظيرَ ببَخْسٍ عن قليلٍ سَيُعْدَمُ
٩٧ فهلّا عكستَ الأمرَ إن كنتَ حازماً ... ولكنْ أضعتَ الحزمَ لو كنتَ تعلمُ
٩٨ وتهدمُ ما تبني بكفِكَ جاهداً ... فأنت مدى الأيامِ تبني وتَهْدِمُ
٩٩ وعند مرادِ الله تَفْنَى كميّتٍ ... وعندَ مرادِ النفسِ تُسْدِي وتُلْحِمُ
١٠٠ وعند خلافِ الأمر تحتَجُّ بالقضاء ... ظهيراً على الرحمن للجَبْرِ تَزْعُمُ
١٠١ تُنَزِّهُ مِنْكَ النفسَ عن سوءِ فعلها ... وَتُعْتِبُ أقدارَ الإله وتَظْلِمُ
١٠٢ تُحِلُّ أموراً أَحْكَمَ الشرعُ عَقْدَها ... وَتقْصِدُ ما قد حَلّهُ الشرعُ تُبْرِمُ
١٠٣ وتفهمُ من قولِ الرسولِ خلافَ ما ... أراد لأنّ القلبَ منك مُعَجَّمُ
١٠٤ مطيعٌ لداعي الغي عاصٍ لرشدهِ ... إلى ربه يوماً يُردّ ويُعلَمُ
١٠٥ مُضِيْعٌ لأمرِ اللهِ قد غَشَّ نفسَه ... مهينٌ لها أنّى يُحَبُ ويُكْرَمُ
١٠٦ بطيءٌ عن الطاعاتِ أَسْرَعُ للخَنَا ... مِنَ السيلِ في مَجْرَاه لا يَتَقسَّمُ
١٠٧ وَتَزْعُمُ مَعْ هذا بأنَّكَ عارفٌ ... كَذَبْتَ يقيناً في الذي أنتَ تَزْعُمُ
١٠٨ ومَا أَنْتَ إلا جاهلٌ ثم ظَالمٌ ... وإنَّك بين الجَاهِلين مُقَدَّمُ
١٠٩ إذا كان هذا نُصْحُ عبدٍ لنَفْسِهِ ... فَمَنْ ذا الذي منه الهُدَى يُتَعلَّمُ
١١٠ وفي مثلِ هذا الحالِ قد قال مَنْ مضى ... وأَحْسَنَ فيما قاله المُتَكلمُ
١١١ فإنْ كنتَ لا تدري فتلك مُصيبةٌ ... وإن كنتَ تدري فالمصيبةُ أَعْظَمُ
١١٢ ولو تبصرُ الدنيا وراءَ سُتُورِها ... رأيتَ خيالاً في منامٍ سيُصْرَمُ

١١٣ كحُلْمٍ بطيفٍ زار في النومِ وانقضى الـ … منامُ وراحَ الطيفُ والصبُّ مُغْرَمُ
١١٤ وظلٍ أرتْه الشمسُ عندَ طلوعِها … سيَقْلِصُ في وقتِ الزوالِ ويَفْصِمُ
١١٥ ومزنةِ صيفٍ طابَ منها مقيلُها … فولّتْ سريعاً والحُرورُ تَضَرَّمُ
١١٦ وَمَطْعمِ ضيفٍ لَذَّ منه مساغهُ … وبعد قليلٍ حاله تلك تُعْلَمُ
١١٧ كذا هذه الدنيا كأحلامِ نائمٍ … ومن بعدها دار البقاءِ ستقدمُ
١١٨ فَجُزْها ممراً لا مَقَراً وكُنْ بها … غريباً تعش فيها حميداً وَتَسْلَمُ
١١٩ أو ابنَ سبيلٍ قال في ظلِ دوحةٍ … وراحَ وخلَّى ظلَّها يَتَقسَّمُ
١٢٠ أخا سفرٍ لا يستقرُ قَرَارُه … إلى أن يرى أوطانَه ويُسَلِّمُ
١٢١ فيا عجباً كم مصرعٍ وعَظَتْ به … بنيها ولكن عن مصارعها عَمُوا
١٢٢ سقتهُم كؤوسَ الحبِ حتى إذا نَشَوا … سقَتهُم كؤوسَ السُّمِّ والقومُ نوَّمُ
١٢٣ وأعجبُ ما في العبدِ رؤيةُ هذه الـ … عظائمِ والمغرورُ فيها متيَّمُ
١٢٤ وما ذاك إلا أنَّ خمرةَ حبِّها … لتسلبُ عقلَ المرء منه وتَصْلِمُ
١٢٥ وأَعْجَبُ من ذا أنّ أحبابَها الأولى … تُهينُ ولِلأعدا تُراعي وتُكْرِمُ
١٢٦ وذلك برهانٌ على أنَّ قدرهَا … جناحُ بعوضٍ أو أدقُ وألأمُ
١٢٧ وحسبُك ما قالَ الرسولُ ممثلاً … لها ولدارِ الخُلْدِ والحقُ يُفهَمُ
١٢٨ كما يدليَ الإنسانُ في اليمِ أَصْبُعاً … وينزعُها منه فما ذاك يَغْنَمُ
١٢٩ ألا ليتَ شِعْرِي هل أبيتَنَّ ليلةً … على حذرٍ منها وَأمْرِيَ مُبْرَمُ
١٣٠ وهل أرِدَنَّ ماءَ الحياة وأَرْتَوِي … على ظمأٍ من حوضِه وهو مُفْعَمُ
١٣١ وهل تَبْدُوَنْ أعلامُها بعدَمَا سَفَتْ … على رَبْعِهَا تلكَ السوافِي فتُعْلَمُ
١٣٢ وهل أَفْرِشَنَ خدي ثرى عتباتهم … خضوعاً لهم كَيْما يَرِقوا ويَرْحَمُوا
١٣٣ وهل أَرْمَيَنْ نفسي طريحاً بِبَابهم … وطيرُ منايا الحُبِ فوقي تَحَوَّمُ
١٣٤ فيا أَسَفِي تَفْنى الحياةُ وتنقضي … وذا العَتْبُ باقٍ ما بقيتم وعِشْتُمُ
١٣٥ فما منكمُ بدٌّ ولا عنكمُ غِنى … وماليَ من صبرٍ فَأسْلُوَ عنكم
١٣٦ ومن شاء فليغضب سواكم فلا أذى … إذا كنتم عن عبدكم قد رضيتمُ

١٣٧ وعقبى اصطباري في هواكم حميدة ... ولكنها عنكم عقابٌ وَمَأْثَمُ
١٣٨ وما أنا بالشاكي لما ترتضونه ... ولكنني أرضى به وأُسلِّمُ
١٣٩ وحَسْبِيْ انْتِسَابي مِنْ بعيدٍ إليكمُ ... ألا إنَّه حظٌ عظيمٌ مُفَخَّمُ
١٤٠ إذا قِيْل هذا عبدُهم ومُحبُّهم ... تهلَلَ بشْراً وجهُه يَتَبَسَّمُ
١٤١ وهَاهُو قد أَبْدى الضراعةَ سائلاً ... لكُمْ بلسانِ الحالِ والقالُ مُعْلَمُ
١٤٢ أحبَتَه عطفاً عليه فإنه ... لفي ظَمَأٍ والموردُ العذبُ أنتمُ
١٤٣ فَيا ساهِياً في غمرةِ الجهلِ والهوى ... صَرِيعُ الأماني عن قريبٍ ستندَمُ
١٤٤ أَفِقْ قد دنى الوقتُ الذي ليس بَعدَه ... سوى جنةٍ أو حرِّ نارٍ تَضَرَّمُ
١٤٥ وبالسنةِ الغراءِ كُنْ متَمسكاً ... هي العروةُ الوثقى التي ليس تُفْصَمُ
١٤٦ تمسكْ بها مسكَ البخيلِ بِمالِهِ ... وعضَّ عليها بالنواجذِ تَسْلَمُ
١٤٧ وَدعْ عنكَ ما قد أحدثَ الناسُ بعدَها ... فمرتع هاتيك الحوادثِ أَوْخَمُ
١٤٨ وهيئ جواباً عندَما تسمعُ النداء ... من اللهِ يومَ العرضِ ماذا أَجَبْتُمُ
١٤٩ به رسلي لمّا أتوكُم فمَنْ يَكُنْ ... أجابَ سِواهُم سوف يَخزَى ويَنْدَمُ
١٥٠ وخُذْ من تُقَى الرحمن أعظَمَ جُنَّةٍ ... ليومٍ به تبدُو عياناً جَهَنَّمُ
١٥١ ويُنْصَبُ ذاك الجسرُ من فوقِ مَتْنِهَا ... فهَاوٍ وَمَخْدوشٍ وَنَاجٍ مُسلَّمُ
١٥٢ ويأتي إلهُ العالمينَ لوَعْدِهِ ... فيفْصِلُ ما بينَ العبادِ وَيَحْكُمُ
١٥٣ ويأخذ للمظلوم ربُّك حقَّه ... فيا بُؤسَ عبدٍ للخلائقِ يَظْلِمُ
١٥٤ وَيُنْشَرُ ديوانُ الحسابِ وتُوْضَعُ الـ ... ـموازينُ بالقِسطِ الذي ليسَ يَظْلَمُ
١٥٥ فلا مُجْرِمٌ يَخْشَى ظلامة ذرة ... ولا مُحْسِنٌ من أجله ذاك يُهْضَمُ
١٥٦ وتشهدُ أعضاءُ المُسيءِ بِما جَنَى ... كذاك على فيه المهيمن يختم
١٥٧ فيا ليتَ شِعْري كيفَ حالُك عندَما ... تَطَايَرُ كُتْبُ العالمين وتُقْسَمُ
١٥٨ أتأخذُ باليُمنى كتابَك أم تَكُنْ ... بأُخْرى وراءَ الظهر منك تُسَلَّمُ
١٥٩ وَتَقرأُ فيه كلَّ شيءٍ عمِلتَه ... فَيُشْرُقُ منك الوَجْهُ أو هو يُظْلِمُ
١٦٠ تقولُ كِتابِيْ فاقرؤوه فإنَّه ... يُبشّر بالفَوز العظيمِ وَيُعْلِمُ

١٦١ فـإنْ تـكُـنِ الأخـرى فـإنَّـكَ قَـائِـلٌ ... ألا لـيـتـنـي لـم أوتَـه فـهـو مُـغْـرَمُ
١٦٢ فـبـادِرْ إذاً مـادامَ فـي الـعـمـرِ فـسحـةٌ ... وعـذرُك مـقـبـولٌ وصـرْفُـك قَـيِّـمُ
١٦٣ وجِدَّ وسَارِعْ واغـتَـنِـمْ زمـنَ الـصِّـبَا ... فـفـي زَمَـنِ الإمـكـانِ تَـسْـعَـى وتـغـنـمُ
١٦٤ وسِرْ مُسرعاً فالسيلُ خلفَك مسرعاً ... وهَـيْـهـاتَ مـا مـنْـهُ مـفـرٌ ومـهـزمُ
١٦٥ فـهـنَّ الـمـنـايـا أيُّ وادٍ نَـزَلْـتَـه ... عـلـيـهـا الـقـدومُ أو عـلـيـكَ سَـتَـقْـدُمُ
١٦٦ فـحيَّ عـلـى جـنـاتِ عـدنٍ فـإنـهـا ... مـنـازلُـك الأولـى وفـيـهـا الـمـخـيـمُ
١٦٧ ولـكـنـنـا سَـبْـيُ الـعـدوِ فـهَـلْ تُـرَى ... نـعـودُ إلـى أوطـانِـنـا فـنُـسَـلِّـمُ
١٦٨ وقـد زَعَـمُـوا أنَّ الـغـريـبَ إذا نـأى ... وشَـطَّـتْ بـه أوطَـانُـه فـهـو مُـؤْلَـمُ
١٦٩ وأيُّ اغـتـرابٍ فـوقَ غـربَـتِـنـا الـتـي ... لـهـا أضـحـتِ الأعـداءُ فـيـنـا تَـحَـكَّـمُ
١٧٠ وحـيَّ عـلـى روضـاتِـهـا وخـيـامِـهـا ... وحيَّ عـلـى عَـيْـشٍ بـهـا لَـيْـسَ يُـسَـأَمُ
١٧١ وحـيَّ عـلـى يـوم الـمـزيـدِ فـإنَّـه ... لـمـوعـدُ أهـلِ الـحُـبِّ حـيـنَ يُـكَـرَّمُ
١٧٢ وحـيَّ عـلـى وادٍ هـنـالـك أفْـيَـحٍ ... مـنـابـرُ مـن نـورٍ لـمـن هـو مُـكْـرَمُ
١٧٣ ومِـنْ حَـوْلِـهـا كـثـبـانُ مِـسْـكٍ مَـقَـاعِـدٌ ... لـمـنْ دونَـهـم هـذا الـعـطـاءُ الـمُـفَـخَّـمُ
١٧٤ يـرونَ بـه الـرحـمـنَ جـلَّ جـلالَـه ... كَـرُؤْيَـةِ بَـدْرِ الـتـم لا يُـتَـوهَّـمُ
١٧٥ أو الشمسِ صَحْواً ليس مِن دون أفقها ... سـحـابٌ ولا غَـيْـمٌ هـنـاك يُـغَـيِّـمُ
١٧٦ فـبـيـنـاهُـمُ فـي عـيـشِـهـم وسـرورِهـم ... وأرزَاقُـهـم تـجـري عـلـيـهـم وتُـقْـسَـمُ
١٧٧ إذا هُـمْ بـنـورٍ سـاطـعٍ قـد بـدا لـهـم ... وقـد رفـعُـوا أبـصـارَهـم فـإذا هُـمُ
١٧٨ بـربـهِـم مِـنْ فَـوقِـهِـم قـائـلٌ لـهـم ... سـلامٌ عـلـيـكُـم طِـبْـتُـمُ ونَـعِـمْـتُـمُ
١٧٩ سَلامٌ عـلـيـكُـم يـسـمَـعُـون جـمـيـعُـهـم ... بـآذانـهـم تـسـلـيـمَـه إذْ يُـسَـلِّـمُ
١٨٠ فـبـالله مـا عـذر امـرئٍ هـو مـؤمـنٌ ... بـهـذا ولا يـسـعـى لـه ويُـقَـدِّمُ
١٨١ ولـكـنـمـا الـتـوفـيـقُ بـالله إنَّـه ... يـخُـصّ بـه مـن شـاء فـضـلاً ويُـنْـعِـمُ





شرح
القصيدة الميمية

بسم الله الرحمن الرحيم

١ إذا طلعت شمس النّهار فإنها أمارةُ تسليمي عليْكمْ فسلِّموا
٢ سَلامٌ مِنْ الرَّحمن في كُلِّ ساعَةٍ وَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَفَضْلٌ وَأَنْعُمُ

---

(١) قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

هذه الأبيات يقول فيها المؤلف رحمه الله لأحبابه إن بيني وبينكم علامة وهي طلوع الشمس وخص هذه العلامة ؛ لأنها ابتداء النور والوضوح والظهور، العلامة : إذا طلعت شمس النهار: «**فإنها أمارة تسليمي عليكم فسلموا**» يعني ردوا السلام فإني الآن أسلم عليكم، وهذا يدل على شوقه ومحبته حيث ابتدأ ذلك بأول النهار؛ لأن الأحاديث الطوال إنما تبتدأ بأول النهار كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لابن جبير لما سأله عن حديث الفتون[1] قال : استقبل النهار يا ابن جبير لأنه حديث طويل .

ثم ذكر بعد ذلك رضي الله عنه أنه يسلم عليهم سلاماً ناشئاً عن رحمة الرب عز وجل.

(٢) قوله (في كل ساعة) المراد بالساعة: الوقت وإن قل.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير، عند قوله تعالى في سورة طه ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ رقم (١٢٦٣).

٣ عَلى الصَّحبِ والإخوَانِ والوِلدِ والأُلى رَعَوْهُمْ بِإحْسَانٍ فَجَادُوا وأنعَمُوا

٤ وَسَائِرِ مَنْ للسُّنَّةِ المَحْضَةِ اقْتَفَى وَمَا زَاغَ عَنْهَا فَهو حَقاً مُقَدَمُ

٥ أُولئكَ أَتْبَاعُ النبِيِّ وَحِزْبُهُ وَلَوْلاهُمُ مَا كَانَ في الأَرْضِ مُسْلمُ

---

(٣) الظاهر أنه أراد بالصحب هنا أصحاب النبي ﷺ والإخوان في الإيمان، والوِلْدِ: أولاد هؤلاء لا أولاده هو، ومن رعوهم بإحسان أي: تبعوهم وأحسنوا اتباعهم بالرعاية الكاملة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1]، ثم عمم في البيت التالي.

(٤) الخبر «**مقدم**» فهو مقدم حقاً، يعني: كل من للسنة المحضة اقتفى وما زاغ عنها فهو مقدم حقاً على غيره.

«**المحضة**» الخالصة من كل ما يشوبها من ضعف أو نقص؛ لأن السنة قد لا تكون خالصة وذلك إذا كانت ضعيفة أو موضوعة فهذه ليست بسنة وإن نسبت إلى الرسول ﷺ. «**وما زاغ عنها فهو حقاً مقدم**» ما زاغ يعني ما انحرف عن هذه السنة فهو حقاً مقدم على غيره، فكل من تمسك بسنة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً فهو مقدم على غيره بلا شك، وكل من كان لها أتبعَ كان لله أطوعَ.

ثم ذكر في البيت التالي وصف هؤلاء السابقين فقال:

(٥) «**أولئك أتباع النبي وحزبه**» أي: طائفته الذين يتحزبون إليه وينصرونه، «**ولولاهم ما كان في الأرض مسلم**» يعني: أنهم هم السبب الذي نشر الله به الإسلام، وهنا أطلق المؤلف - رحمه الله - قوله: «**لولاهم**» لأن استعمال لولا في السبب الحقيقي الشرعي أو

---

(١) سورة التوبة آية (١٠٠).

الحسي جائز، سواء ذكر معها الله عز وجل الذي هو مسبب الأسباب أم لم يذكر، والمحذور منها أمران :

أحدهما : أن يضاف هذا الشيء إلى غير سببه الشرعي أو الحسي فهذا لا يجوز مثل أن يقول القائل : لولا الولي فلان لحصل كذا وكذا، والولي غير حاضر أو ميت؛ فهذا لا يجوز.

والأمر الثاني من المحذور: أن يقرنها مع الله بحرف يقتضي التسوية كقوله : «**لولا الله وكذا**» فهذا لا يجوز وإن كان السبب صحيحاً، فلو قلت مثلاً وقد غرقت وأخرجك إنسان من الغرق : لولا الله وفلان لهلكت، هذا لا يجوز ؛ لأنك قرنت الله مع غيره بحرف يقتضي التسوية، هذان هما المحذوران :

أولاً : أن يضيف الشيء إلى غير سبب شرعي أو حسي.

ثانياً : أن يضيفه إلى سبب صحيح، لكن مقروناً مع الله بحرف يقتضي التسوية كالواو، أما لو ذكر السبب الصحيح الشرعي أو الحسي وحده فهذا لا بأس به، أو ذكره مع الله مقروناً بثم فلا بأس به، كما لو قال : لولا الله ثم فلان، ولاحظ أننا قلنا : السبب الصحيح، أما لو جاء بسبب غير صحيح فإنه لا يصح ولو قرنه بثم كما لو قال : لولا الله ثم الولي فلان الميت أو الغائب، هذا لا يجوز.

وابن القيم - رحمه الله - في هذه الأبيات قال : «**لولاهم**» فأضافه إلى سبب صحيح غير مقرون مع الله بالواو، إذاً لولاهم ما كان في الأرض مسلم. وهل هم السبب الوحيد في ذلك؟ الجواب : لا، فأصل ذلك الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ، فكانوا هؤلاء حزباً له وناصرين له، ففتح الله بهم من البلدان والقلوب ما لا يعلمه إلا

٦ لَـولاهُـمُ كَـادَتْ تَـمِـيـدُ بَـأَهْـلِـهَـا وَلَـكِـنْ رَوَاسِـيـهَـا وَأَوْتَـادُهَـا هُـمُ

٧ ولـولاهُـمُ كَـانَـتْ ظَـلامَـاً بَـأَهْـلِـهَـا وَلَـكِـنْ هُـمُ فِـيـهَـا بُـدُورٌ وَأَنْـجُـمُ

٨ أُولـئِـكَ أَصْـحَـابِـي فَـحَـيَّـهـلا بِـهِـم وَحَـيَّـهَـلا بِـالـطَّـيِّـبِـيـنَ وأَنْـعِـمُ

٩ لِـكُـلِّ امـرِئٍ مِـنْـهُـمْ سَـلامٌ يَـخُـصُّـهُ يُـبَـلِّـغُـهُ الأدْنَـى إِلَـيْـهِ وَيَـنْـعَـمُ

١٠ فَيَا مُحْسِناً بَلِّغْ سَلامِي وَقُلْ لَهُمْ مُـحِـبُّـكُـمْ يَـدْعـو لَـكُـمْ وَيُـسَـلِّـمُ

الله عز وجل. والدليل على أن السبب الصحيح الشرعي أو الحسي جائزٌ أن يضاف إليه الشيء بـ (لولا) بدون ذكر الله قول الرسول ﷺ : «**لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[(١)] يعني عمه أبا طالب.

(٦) المراد بالمَيَدَان هنا ليس المَيَدَان الحسي ولكنه المعنوي، يعني لولا هؤلاء لاضطربت الأقوال واختلفت الآراء وفسدت الأرض.

(٧) صحيح؛ أن حزب الرسول عليه الصلاة والسلام القائمين بسنته الداعين إليها هم البدور والأنجم النافعة للعباد والبلاد.

(٨) «**أولئك أصحابي**» أي صحبة دينية «**فحيهلاً بهم وحيهلاً بالطيبين وأنعِمُ**».

ثم قال في البيت التالي لما عمم السلام:

(٩) «**لكل امرئ منهم**» هذا التخصيص، «**سلام يخصه يبلغه الأدنى إليه وينعم**» وهذا يدل على شدة تعلق قلب المؤلف رضي الله عنه بهؤلاء حيث سلم عليهم ذلك السلام العام وأثنى عليهم ثم خصص.

(١٠) الظاهر أنه تصور هنا شخصاً محسناً خاطبه بذلك ليبلغهم سلامه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب منقبة أبي طالب (٣/ ٦٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب (١/ ١٩٤).

١١ وَيَا لائِمِي فِي حُبِّهِمْ وَوَلائِهِمْ تَأَمَّلْ هَدَاكَ الله مَنْ هُوَ أَلْوَمُ
١٢ بَأَيِّ دَلِيلٍ أَمْ بِأَيَّةِ حُجَّةٍ تَرَى حُبَّهُمْ عَاراً عَلَيَّ وَتَنْقِمُ
١٣ وَمَا العَارُ إلا بُغْضُهُمْ وَاجْتِنَابُهُمْ وَحُبُّ عِدَاهُمْ ذَاكَ عَارٌ وَمَأْثَمُ
١٤ أَمَا وَالذِي شَقَّ القُلُوبَ وَأَوْدَعَ المَحَبَّةَ فِيهَا حَيْثُ لا تَتَصَرَّمُ

ولم يقصد بذلك الله عز وجل ؛ فلم يقصد أن الله يبلغ سلامه إياهم ولكن تصور شخصاً محسناً يبلغ هؤلاء سلامه، وكل هذا من باب الخيال الواسع الذي يدور في ذهن الشعراء.

(١١) أيهم الألوم؛ الذي يلوم الشخص في حب أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه وحزبه أو المحب ؟

والجواب : الأول، تأمل هداك الله من هو ألوم !!

(١٢) هذا الاستفهام للإنكار، يعني ليس عندك أي دليل ولا يمكنك أن تأتي لي بدليل يجعل حب هؤلاء عاراً ينقم علي به. وكأنه يندد بالرافضة الذين يرون أن حب الصحابة رضي الله عنهم عار، وأنه يجب بغضهم وسبهم إلا من استثنوا منهم من آل البيت ونفراً قليلاً من غيرهم.

(١٣) هذا صحيح، فحب الصحابة رضي الله عنهم وحزب الرسول ﷺ ليس بعار؛ بل هو شرف وطاعة وأجر، والمرء مع من أحب لكن بغضهم هو العار.

(١٤) «أَمَا» هذه للتنبيه مثل «ألا»، ثم أقسم بالله عز وجل الذي شق القلوب وأودع المحبة فيها، فالذي يعطي المحبة في القلوب هو الله عز وجل، أحياناً تود أن تحب شخصاً ولكن تعجز، وكثيراً ما يلقي الله في قلبك محبة الشخص من غير أي سبب وعمل، ولهذا قال

١٥ وَحَمَّلَهَا قَلْبَ المُحِبِّ وَإِنَّهُ لَيَضْعُفُ عَن حِمْلِ القَميصِ وَيَأْلَمُ

النبي ﷺ : «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[١]. فالمحبة يلقيها الله عز وجل في قلب الإنسان، وما أجمل محبةَ الله ورسوله والمؤمنين إذا ألقاها الله تعالى! هذه أشرف أنواع المحبة التي يتمنى الإنسان أن الله سبحانه وتعالى يضعها في قلبه.

(١٥) أي أن المحبة من أشد ما يكون؛ لأن المحبة جذابة تجذب الإنسان بسلاسل من حديد إلى المحبوب، ولهذا لا يمكن أن تجد أحداً يحب الله عز وجل إلا ويعمل بطاعته، لما ادعى قوم أنهم يحبون الله ماذا قال الله للرسول ﷺ؟ قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾[٢] إن كنت صادقاً فاتبع الرسول ﷺ، أما أن تقول: واللهِ أنا أحب الله ورسوله، وتبكي على هذا الحب، وإذا بك من أفسق عباد الله؛ فهذا كذب. فالميزان الذي لا يمكن أن يبخس هو اتباع الرسول ﷺ، فكلما رأيت الإنسان أتْبَع للرسول ﷺ فاعلم أنه أحب إلى الله وهذا يعني أنه يحب الله تعالى والله تعالى يحبه؛ لأن محبته لله قادته إلى اتباع رسوله ﷺ، وأثمر الإتباع محبة الله في قلبه. فهنا سلسلة؛ محبة الإنسان ينتج عنها اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، واتباع الرسول ﷺ تثمر محبة الله عز وجل، فهذه المحبة يحملها الله قلب المحب «**وإنه ليضعف عن حمل القميص ويألم**» وهل المقصود هنا القلب أو المحب؟ المقصود هو المحب؛ لأنه هو الذي يلبس القميص.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٤)، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء (١٩٧١).

(٢) سورة آل عمران آية (٣١).

١٦ وَذَلَّلَهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ لِصَوْلَةِ ـ الْمَحَبَّةِ لا تَلْوَى وَلا تَتَلَعْثَمُ
١٧ وَذَلَّلَ فِيهَا أَنْفُساً دونَ ذُلِّهَا ـ حِيَاضُ الْمَنَايَا فَوْقَهَا وَهِيَ حُوَّمُ

(١٦) «**ذللها**» الظاهر أنها القلوب «**حتى استكانت لصولة المحبة**» والمحبة أمرها عظيم، ولا يعرف شأنها إلا من قرأ أخبار العشاق، فمن قرأ أخبار العشاق عرف كيف أثر المحبة وشأنها، لكن محبة الله لا تولد ما تولده محبة العشاق ؛ لأن محبة العشاق قد تقتل العاشق، لكن محبة الله تزيده سروراً وانشراحاً وفرحاً وانبساطاً، وبين المحبتين أعظم مما بين السماء والأرض. والمحبة شأنها عظيم حتى إن ابن القيم - رحمه الله - في روضة المحبين قال : إن كل شيء يدور على المحبة ؛ لولا محبتك للخبز ما أكلت، وللنوم ما نمت، وللذهاب إلى أصحابك ما ذهبت وهكذا، لكن الموفق من وفقه الله وجعل محبته تابعة لمحبة الله عز وجل، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم.

«**لا تلوى ولا تتلعثم**» يعني لا تتأخر ولا تميل يميناً ولا شمالاً.

(١٧) «**وذلل فيها**» أي في المحبة، «**أنفساً دون ذلها**» وإذا شئت مثالاً يضرب لذلك فتذكر قصة مغيث وبريرة(١)، فمغيث يحب بريرة، وبريرة لا تحبه، فهو يمشي وراءها في سكك المدينة يبكي ويطلب أن ترجع له أو أن تبقي النكاح. إذاً نفسه ذلت لهذه المرأة من أجل المحبة، فانظر كيف المحبة تصنع بالرجال حتى تجعلهم أذلة للنساء وهذا أمر كما قال المؤلف - رحمه الله - أمر من الله عز وجل الذي شق قلبه وأودع فيه هذه المحبة ؛ ولهذا ينبغي لك دائماً أن تسأل الله عز وجل أن يجعل محبتك تابعة لمحبته، اللهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة (٥٢٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب العتق، باب بيان أن الولاء لمن أعتق (١٥٠٤).

١٨ لأَنْتُمْ عَلى قُرْبِ الدِّيارِ وَبُعْدِها أَحِبَّتُنَا إنْ غِبْتُمُ أو حَضَرْتُمُ
١٩ سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ مَحَبَّةَ صَبٍّ شَوْقُهُ لَيْسَ يُكْتَمُ
٢٠ وشاهدُ هذا أنَّها في هبوبِها تكادُ تَبُثُّ الوجدَ لو تَتَكلَّمُ
٢١ وكنتُ إذا ما اشتدَّ بي الشوقُ والجوى وكادتْ عرى الصبر الجميل تَفصَّمُ
٢٢ أعللُ نفسي بالتلاقي وقربهِ وأوهمُها لكنَّها تتوهَمُ
٢٣ وأُتْبِعُ طرفي وِجْهَةً أنتمُ بها فلي بحماها مربعٌ ومخيَّمُ
٢٤ وأذكر بيتاً قاله بعضُ من خلا وقد ضلَّ عنه صبرُه فهو مُغْرمُ
٢٥ أسائلُ عنكم كلَّ غادٍ ورائحٍ وأوُمِي إلى أوطانِكم وأُسلِمُ

إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربني إلى حبك ثم قال : «**حياض المنايا فوقها وهي حوم**» يعني من شدة المحبة كأن حياض المنايا - وهي موارد المنايا التي ترد إليها - فوق هذه النفوس تحوم عليها لتقتلها من شدة المحبة.

(١٨) يعني أنتم أحبتنا قربتم أم بعدتم، غبتم أم حضرتم، وهذا دليل على أن محبة هؤلاء قد ملأت قلب ابن القيم رحمه الله، الله أكبر ! ؛ هذه محبة عظيمة !

(١٩) «**نسمات الريح**» يعني هبوبها، سلوها كم قد تحملت؛ لأن الريح هي التي تأتي بالروائح، سلوها كم قد تحملت من الأشواق؟ وهذا يعني أنها كثيرة.

(٢٠) «**الوجد**» : شدة المحبة، يعني شاهد هذا أن هذه النسمات الريحية التي تحمل محبتنا إليكم تكاد تنشر الوجد بالصوت لو تتكلم لكنها لا تتكلم، إلا أنها تحمل الأشواق.

(٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥) قوله : «**وكنت إذا ما اشتد بي الشوق والجوى**» الشوق هو شدة المحبة، والجوى : هو الحزن على فراق

....

المحبوب، «**وكادت عرى الصبر الجميل تفصم**» كنت «**أعلل**... **وأتبع**... **وأذكر**...» خبر كنت، و «**أعلل**» هذا حديث النفس، «**وأتبع طرفي**» هذا عمل العين، «**وأذكر بيتاً**» هذا عمل النفس تسلية.

أولاً : أعلل نفسي بالتلاقي وقربه، وأقول لها : سيأتي اللقاء وكل آت قريب، اصبري سوف تلتقين بأحبابك. «**وأوهمها**» يعني أوهمها بقرب التلاقي وأنه ليس ببعيد. «**لكنها تتوهم**» يعني معناه يلحقها الوهم من شدة الشوق ولا تعي ما أقول لها.

ثانياً : «**وأتبع طرفي وجهة أنتم بها**» كأني أتصور أن هذا الرجل خارج البلد ومحبوه في مكة ويتجه إلى مكة ينظر إلى الجهة التي هم فيها فلي بحماها مربع ومخيم.

ثالثاً : قال «**وأذكر بيتاً قاله بعض من خلا وقد ضل عنه صبره فهو مغرم**» يعني أنه مغرم بالحب كأن غريماً لازمه، وما هذا البيت ؟ «**أسائل عنكم كل غادٍ ورائح**...». «**غاد**» يعني في الصباح، ورائح يعني في المساء، «**وأومي إلى أوطانكم وأسلم**» هذا بيت لغير ابن القيم - رحمه الله -، لكنه يتذكر هذا البيت الذي كان يقول صاحبه هذا القول:

أسائلُ عنكم كلَّ غادٍ ورائحٍ وأوُمِي إلى أوطانكم وأُسلِّمُ

يعني لو تصورتَ هذه الحال أو تخيلتَها وجدتّ أنه في شوق عظيم، كل واحد يجيء في الصباح أو في المساء يسأله أين الأحبة ؟ أين تركتهم ؟ وأين وجدتهم ... إلخ، ومع ذلك يومي إلى أوطانهم ويسلم كأنه المجنون من شدة الوله ومن شدة الشوق.

٢٦ وكمْ يصبرُ المشتاقُ عمَّنْ يحبُّه　　وفي قلبهِ نارُ الأَسَى تتضرَّمُ

٢٧ أما والذي حجَّ المحبون بيتَه　　ولبّوا له عند المُهَلِ وأحرَمُوا

---

(٢٦) يعني: ما أكثر ما يصبر المشتاق عمن يحبه ويتصبر ولكن في قلبه نار الأسى - يعني الحزن - تتضرم، وهو كذلك؛ يصبر المشتاق ويعلل نفسه بالتلاقي ويقول: إن شاء الله اللقاء قريب وما أشبه ذلك وقلبه فيه النار تتضرم يريد الوصول إلى محبوبه.

ثم انتقل المؤلف - رحمه الله - من هذا التصوير للأحباب - الذين هم حزب الرسول عليه الصلاة والسلام - انتقل إلى موضوع آخر جديد وهو تصور الحج، فلا أدري هل المؤلف - رحمه الله - نظم هذه القصيدة في سفر الحج، لأن في تقديم الأحباب وذكرهم والتحدث عنهم وهو يريد الحج له مناسبة، فقد يكون المؤلف - رحمه الله - نظم هذه القصيدة وهو في سفره إلى الحج، والله أعلم.

(٢٧) المؤلف - رحمه الله - بعد أن ذكر المحبة وما تؤثر في القلب انتقل إلى ذكر شيء مما يحبه المؤمن وهو الوصول إلى بيت الله الحرام فقال:

أما والذي حجَّ المحبون بيتَه　　ولبّوا له عند المُهَلِ وأحرَمُوا

وهذا يعني به الله عز وجل فإنه هو الذي يُقْسَمُ به فقال: «**أما والذي حج المحبون بيته**»، وبيت الله تعالى هي الكعبة وأضافها الله تعالى إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً. وقوله: «**عند المُهَل**» الميقات لأنه مكان الإهلال، قال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مهل أهل المدينة ذو الحليفة...**»[1] الحديث، ولا يصح أن نقول: المَهَل؛ لأن المَهَل من الثلاثي من هل يهل، وهذا من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب ميقات أهل المدينة (١٥٢٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب مواقيت الحج (١١٨٢).

٢٨ وقد كشفوا تلك الرؤوسَ تواضعاً لعزةِ من تعنوا الوجوه وتُسلِمُ
٢٩ يُهلون بالبيداءِ لبيك ربنا لك الملك والحمد الذي أنت تَعلمُ

الرباعي من أهل يُهل، وهذا هو المقصود.

(٢٨) كشفوا رؤوسهم في الإحرام تواضعاً لله عز وجل، وهذا أمر معروف إلى الآن أن الإنسان يكشف رأسه من باب التواضع وتعظيم مَنْ كشف رأسَه من أجله حتى نشاهد الآن الجند إذا مر بهم شخص يكرمونه يضعون ما على رؤوسهم من القبعات إكراماً له وتعظيماً، وكذلك الصوفية الذين يعظمون مشائخهم ومن يزعمونهم أولياء يكشفون رؤوسهم إذا أقبلوا إليهم تعظيماً، وكشف الرأس من العادة أن يكون من باب التعظيم عند اللقاء.

وقد كشفوا تلك الرؤوسَ تواضعاً لعزةِ من تعنوا الوجوه وتُسلِمُ

يعني من تعنوا له وهو الله - عز وجل - أي تذل له كما قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[(١)] وهذا معنى لا يكاد أحد من المحرمين يشعر به أنه يكشف الرأس تواضعاً لله عز وجل، ولولا أن المرأة عورة لكان من تعظيم شعائر الله أن تكشف رأسها لكن هي عورة فصار في حق الرجل دون المرأة.

(٢٩) التلبية المعروفة المشهورة تلبية النبي عليه الصلاة والسلام، يهلون بالبيداء - وهو مكان معروف[(٢)] عند مهل أهل المدينة - يقولون لبيك ربنا، لبيك اللهم لبيك . . .إلخ. والتلبية بمعنى الإجابة والطاعة والإقبال.

---

(١) سورة طه آية ١١١.
(٢) البيداء: جبل صغير طرف ذي الحليفة.

٣٠ دَعاهُم فلبَّوه رضاً ومحبةً فلما دعوهُ كان أقرب منهُمُ
٣١ تراهم على الأنضاءِ شعثاً رؤوسُهم وغبراً وهمْ فيها أَسَرُّ وأَنْعمُ
٣٢ وقد فارقوا الأوطانَ والأهلَ رغبةً ولم يثنيهم لذاتُهم والتنعّمُ
٣٣ يسيرون من أقطارها وفجاجِها رجالاً وركباناً ولله أسلَمُوا

---

(٣٠) «**دعاهم**» يعني الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1] فلما دعاهم الله عز وجل لبوا هذه الدعوة رضاً بشرعه ومحبة له.

(٣١) يعني مع مشقة السفر وطول السفر لا سيما في الزمن السابق لما كانوا يسيرون على الإبل وعلى الأرجل يكونُ على هذا الوصف، على الإبل التي قد هزلت من طول السير والمشقة «**شعثاً رؤوسهم وغبراً**» ولكن «**وهم فيها**» أي في هذه الحال أسرُّ وأنعمُ؛ لأنهم إنما شعِثَتْ رؤوسهم لله عز وجل.

(٣٢) فهم فارقوا أوطانهم وأهلهم وتنعُّمَهم ولذاتهم كل ذلك رغبة فيما عند الله عز وجل، ولهذا كان الحج نوعاً من الجهاد.

(٣٣) من كل الأقطار يأتون، من أقصى شرق آسيا ويأتون من أقصى المغرب، يؤمون هذا البيت، يبقى الإنسان ستة أشهر حتى يصل إلى البيت، وقد حدثنا المشاة الذين كانوا يمرون بنا ويُسَمَّون عند العامة الدراويش، يأتون من أقصى شرق آسيا ستة أشهر ينزلون من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة حتى يصلوا إلى مكة كما قال المؤلف - رحمه الله -: «**من أقطارها وفجاجها رجالاً وركباناً ولله أسلموا**»، انقادوا محبة وتعظيماً ورجاءً لما عنده حتى وصلوا إلى مُناهم.

---

(١) سورة الحج آية ٢٧.

٣٤ ولـمـا رأت أبـصـارهـم بـيـتَـه الـذي	قـلـوبُ الـورى شـوقـاً إلـيـه تَـضَـرَّمُ
٣٥ كـأنـهـمُ لـم يـنْـصَـبُـوا قـطُّ قـبـلَـه	لأنَّ شـقـاهُـمْ قـد تـرحَّـلَ عـنـهُـمُ
٣٦ فـلـلـه كَـمْ مِـنْ عَـبْـرَةٍ مُـهْـرَاقَـة	وأخـرى عـلـى آثـارِهـا لا تَـقَـدَّمُ
٣٧ وقد شَرِقَتْ عينُ المحبِ بدمْعِها	فـيـنـظـر مـن بـيـن الـدُّمـوع ويُـسْـجِـمُ
٣٨ إذا عـايَـنَـتـهُ زالَ ظـلامُـهـا	وزالَ عن الـقـلـبِ الـكـئـيـبِ الـتـألـمُ
٣٩ ولا يعرف الطرفُ المعاينُ حسنَه	إلى أن يعودَ الطرفُ والشوقُ أعظمُ

---

(٣٥) لما وصلوا إلى المحبوب نسوا جميع المشاق التي صارت عليهم كأن لم يكن شيء، يقول: «**كأنهم لم ينصبوا قط قبله**» أي لم يتعبوا ولم يحصل لهم ذلك الشعث والغبرة والتعب والجوع والعطش والحر والبرد، حتى كان يحدثني من أثق به أنه حج مع الجماعة في شدة الحر وقد كشفوا رؤوسهم وكانت الرؤوس من شدة الحر تطير قشورها وهم صابرون محتسبون يرجون ثواب الله عز وجل، ومع هذا إذا وصلوا إلى البيت زال عنهم كل شيء كأن لم يحصل لهم نصب أو تعب.

(٣٦) يعني إذا رأوا البيت بكَوا وعجوا بالبكاء لحصول مطلوبهم وشدة شوقهم إلى ربهم عز وجل، لا لألم أو ضيق، ولكن من شدة الشوق وحصول المطلوب.

(٣٧) الإنسان إذا اغرورقت عيناه بالدموع تجده لا يبصر البصر المعروف، لكن ينظر من بين الدموع، من بين هذا الماء الذي يترقرق في عينه كما قال المؤلف - رحمه الله -.

(٣٨) لأنه يرى بيت محبوبه الذي ما جاء من أقصى البلاد إلا من أجله، فيزول عنه ألم القلب ولا يبقى في قلبه شيء من الألم أو التعب.

(٣٩) يعني مع كونه وصل إلى الغاية فإذا نظر إلى هذا المحبوب لا يعود

٤٠ ولا عَجَبٌ مِنْ ذا فحين أضافَه إلى نفسه الرحمنُ فهو المعظم
٤١ كساهُ من الإجلال أعظمَ حلّةٍ عليها طرازٌ بالمَلَاحَةِ مُعلَمُ
٤٢ فمنْ أجلِ ذا كلُ القلوبِ تحبُه وتخضَعُ إجلالاً له وتعظِّمُ

الطرف إليه إلا وقد ازداد الشوق إليه، وهذا كل محبوب يحبه الإنسان محبة شديدة لا يشبع منه حتى لو ظفر به لا يكاد ينظر إليه أو يسمع قوله إلا ازداد شوقاً.

(٤٠) أي لا تعجب من هذا الشوق العظيم، وهذا الفرح بلقاء هذا البيت «**فحين أضافه إلى نفسه الرحمن فهو المعظم**» يعني أن ما في القلوب من المحبة والتعظيم بهذا البيت إنما هو بسبب إضافته إلى الله فتعظيم البيت من تعظيم الله عز وجل، والعجب أن من الناس اليوم من يعظم هذا البيت ولا يريد أحداً أن يخدشه بأي أذى، ولكنه لا يعظم رب البيت؛ فيمضي وقته في معاصي رب هذا البيت، وفي الفجور والفسق، وهذا من انعكاس القضية؛ لأننا لا نحب بيت الله، ولا نحب رسول الله ﷺ، ولا نحب المؤمنين إلا من أجل الله عز وجل، فالذين عكسوا القضية، وصاروا يعظمون هذا البيت ذلك التعظيم - والبيت جدير به - لكنهم لا يعظمون الله عز وجل، هؤلاء نقول: هم عكسوا القضية، وابن القيم - رحمه الله - هنا يبين أن ما يحل في القلوب من محبة البيت وتعظيمه إنما هو من أجل أن الله أضافه إليه.

(٤١-٤٢) لا شك أن البيت قد كساه الله تعالى جلالاً وعظمة وملاحة في النفوس، يجد الإنسان فيه من الجمال والجلال والملاحة التي تكسب الجمال رونقاً؛ لأنه ليس كل جميل يكون مليحاً، والجمال إذا فقد منه الملاحة لم يكن ذلك الشيء المطلوب، كما أن الملاحة إذا كانت مع شيء من النقص في الجمال زادته بهاءً، إذاً هذا

٤٣ وراحوا إلى التعريفِ يرجون رحمةً ومغفرةً ممَّنْ يجودُ ويكرمُ
٤٤ فللهِ ذاك الموقفُ الأعظمُ الذي كموقفِ يومِ العرضِ بل ذاكَ أَعْظَمُ

البيت جمع بين الجمال والملاحة فهو أعطي من الحسن أكملَه.

(٤٣) من المعلوم أن المؤلف - رحمه الله - طوى ذكر المبيت بمنى فقال: «**راحوا إلى التعريف**» وذلك لأن الأصل والمقصود هو الوقوف بعرفة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام «**الحج عرفة**»[(١)] يرجون رحمة ومغفرة من الله عز وجل، الذي يجود بالخير ويكرم أولياءه.

(٤٤) أي: أن موقف عرفة كموقف يوم العرض، بل ذاك - أي موقف يوم العرض - أعظم، ولا شك أنه أعظم؛ لأنه يجمع الأولين والآخرين، والمؤمنين والكافرين، والآدميين وغير الآدميين، أما هذا فلا يجمع إلا من حج فقط، وهم طائفة قليلة بالنسبة لموقف العرض، لكنه في الحقيقة مشهد مصغر لمشهد العرض، فتجد الناس من أنواع شتى مختلفين في هيئاتهم وأجسامهم، وألوانهم وأحوالهم، وألسنتهم وأعمالهم وقلوبهم، من كل وجه مختلفين، هذا يذهب وهذا يجيء، وهذا ساكن وهذا متحرك، فإذا شاهدت الناس في هذا الدفع فكأنما تتذكر يوم القيامة، ولا سيما عند الانصراف وأنت تشاهد هؤلاء الناس كأنهم جراد منتشر، كالفراش المبثوث - كما قال الله عز وجل -، إذا شاهدتهم - سبحان الله العظيم - تخنقك العبرة، فلا تستطيع أن تملك نفسك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٠٩، ٣٣٥) وأبو داود في المناسك، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩) والترمذي في الحج، باب ما جاء في من أدرك الإمام بجمع (٨٨٩) والنسائي في الحج، باب فرض الوقوف بعرفة (٥/ ٢٥٦) وابن ماجه في المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥).

٤٥ ويدنو به الجبارُ جلَّ جلالُه يباهي بهمْ أملاكَه فهو أكْرَمُ
٤٦ يقولُ عبادي قد أتوني محبةً وإني بهم برٌّ أجودُ وأَرْحمُ

حتى تبكي تجاه هؤلاء القوم، فكيف بالموقف العظيم الذي مقداره خمسون ألف سنة ومع ذلك الموقف يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، كذلك أيضاً يفر من فصيلته التي تؤويه، قبيلته التي كان يأوي إليها في الدنيا يفر منها يوم القيامة. إذاً ذلك المشهد - مشهد يوم القيامة - أعظم من مشهد يوم عرفة، لكن مشهد يوم عرفة لا شك أنه مشهد مصغر يعتبر به الإنسان بما يكون في ذلك الموقف العظيم.

(٤٥) «**يدنو به**» يعني في ذلك اليوم، فالباء هنا بمعنى «**في**»، أي في ذلك اليوم يدنو الله عز وجل. وهذا الدنو دنوّ لائق بجلاله وعظمته فهو دنو حقيقي مع علوه الذي لا ينفك عنه عز وجل؛ لأن العلو من صفاته الذاتية، والدنو من صفاته الفعلية، فلا تنافي بينهما، فالله تعالى عالٍ فوق عرشه، ومع ذلك يدنو من خلقه كيف يشاء سبحانه وتعالى، ويجب علينا أن نؤمن بهذا وأنه حق على حقيقته، ولا نقول: كيف؟ التكييف هنا غير وارد، بل السؤال بكيف في هذا الموطن بدعة مردود على فاعله، فأنت إذا قلت لي: أبوك نزل من السقف إلى المجلس، فقل لي: كيف نزل؟! أما إذا قلت: الرب عز وجل يدنو من عباده يوم عرفة، فلا تقل لي: كيف يدنو؟ بل قل: آمنتُ وصدَّقتُ.

(٤٦) عباده من كل فج ما جاءوا إلى هذا الموقف وفارقوا الأوطان وصبروا على ما حصل لهم من المشقة في أسفارهم إلا من أجل محبة الله عز وجل، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، فمن بذل ما يحب لله أعطاه الله تعالى ما يحب، ولهذا قال: «وإني

٤٧ فـأشـهـدُكـم أنـي غـفـرتُ ذنـوبَـهـم وأعـطـيـتُـهـم مـا أمّـلـوهُ وأنْـعَـمُ
٤٨ فـبُشْـرَاكُـمُ يـا أهـلَ ذا الـموقـفِ الـذي بـه يَـغْـفِـرُ اللهُ الـذنـوبَ ويَـرْحَـمُ
٤٩ فـكـم مِـنْ عـتـيـقٍ فـيـه كُـمِّـلَ عِـتْـقـهُ وآخـرَ يُـسْـتَـسْـعـى وربُـك أرْحَـمُ
٥٠ ومـا رُؤِي الـشـيـطـانُ أغـيـظَ في الـوَرَى وأحـقـرَ مـنـه عـنـدَهـا وهـوَ ألأمُ

بهم بر» أي: كثير العطاء «أجود وأرحم».

(٤٧) يعني: أن الله تعالى غفر ذنوبهم، فلا ينصرفون إلا وقد غُفر لهم، وأعطوا ما أملوه من الخير، ولهذا ينبغي للمسلم في هذا الموقف العظيم، وفي هذا اليوم، أن يحرص على الدعاء والثناء على الله سبحانه وتعالى، لا سيما عند الانصراف في آخر اليوم.

(٤٩) قوله «كم» كم: للتكثير يعني ما أكثر العتقاء فيه من النار «وآخر يستسعى» ومعناه يكمل عِتْقُه فيما بعد، لكونه فاته العتق في هذا اليوم، لكن خفف عنه، فصار كالعبد الذي يستسعى ليكمل عتقه.

(٥٠) الشيطان لا شك أنه عدو لنا وكل عدو فإنه يغيظه أن يُرْحَم عدوه، وكل عدو يفرح بما يسوء عدوه، والشيطان إذا رأى رحمة الله عز وجل في هذا اليوم تنزل على أهل الموقف فإنه يغيظه هذا الشيء، وما رُؤي الشيطان أغيظ في يوم من الأيام من يوم عرفة إلا ما رُؤي يومَ بدر، فإنه صار غيظه في يوم بدر أشد وأعظم؛ لأن يوم بدر حصل فيه من نصرة النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابِه بل من نصرتنا نحن إلى يوم القيامة ما لم يحصل مثله، حتى سماه الله تعالى يوم الفرقان، قتل من صناديد قريش عدد لم يقتل في أي وقعة مثل ما قتل في يوم بدر، مع أن المسلمين كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، يقابلون نحو ألف رجل، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وفرسان فقط يتعاقبون عليها، وأولئك القوم أعداؤهم قد جاءوا بعُددهم وعددهم، جاءوا كما قال الله عز وجل: ﴿خَرَجُواْ مِن

٥١ وذاكَ لأمــرٍ قــدْ رآه فــغــاظَــهُ فأقبلَ يحثو التُرْبَ غيظاً وَيلْطِمُ
٥٢ لِمَا عايَنَتْ عيناه مِنْ رحمةٍ أتتْ ومغفرةٍ منْ عندِ ذي العرشِ تُقْسَمُ

دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأنفال ٤٧) يقول زعيمهم أبو جهل: (واللهِ ما نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم فيها ثلاثاً، ننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً) لأمور أربعة: ننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً.

هذه الأغراض الأربعة صارت على عكس ما أراد، صارت - والحمد لله - ذلاً لهم إلى يوم القيامة، سمعتْ بهم العربُ لكن سمعت بذلهم وهزيمتهم، قُتِل من صناديدهم أربعة وعشرون رجلاً وألقوا في قليب من قلب بدر خبيثة، ووقف النبي عليه الصلاة والسلام عليهم يقول - بأسمائهم وأسماء آبائهم -: «**يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً؟**» يكلمهم وهم أموات توبيخاً وتقريعاً وتنديماً لهم، ولما قالوا له: يا رسول الله كيف تكلم أقواماً جَيَّفُوا؟ قال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم؛! يسمعون أكثر مما تسمعون لكنهم لا يجيبون**»، فالمهم أن الشيطان يغتاظ يوم عرفة وما رؤي أغيظ من يوم عرفة إلا يوم بدر؛ لأن يوم بدر شأنه عظيم سماه الله تعالى يوم الفرقان، فالشيطان عدو لبني آدم، فإذا غفر الله لهم ساءه ذلك واغتم، لهذا قال في البيت الذي يليه:

(٥٢) قوله «لِمَا»، اللام هنا للتعليل، يعني فعل هذا لأجل ما عاينت عيناه من الرحمات العظيمة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٧٦).

٥٣ بَنَى ما بَنَى حتى إذا ظَنَّ أنَّهُ   تمكّنَ من بُنْيانِه فَهْوَ مُحْكَمُ
٥٤ أتى اللهُ بنياناً له مِنْ أَسَاسِهِ   فَخَرَّ عليهِ سَاقِطاً يتهَدَّمُ
٥٥ وكَمْ قَدْرُ ما يعلوُ البناءُ وينتَهي   إذا كانَ يبنيهِ وذو العرش يَهْدِمُ
٥٦ ورَاحُوا إلى جَمْعٌ فباتُوا بمَشْعرِ الْـ   حَرَامِ وصَلُّوْا الفَجْرَ ثم تقدَّمُوا

(٥٣ - ٥٤ - ٥٥) يعني: أنه إذا كان الله عز وجل يهدم ما بناه إبليس في لحظة فهل يمكن أن يعلو بناء إبليس؟! لا ؛ لأنك مهما عملت من المعاصي وتبت إلى ربك وأنبت بإخلاص وصدق فإن هذه المعاصي كلها تزول، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[١].

(٥٦) وراحوا إلى جمع - أي الحجاج -، والرواح قد يراد به مجرد الانطلاق وليس الانطلاق في آخر النهار، ومنه قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة فيمن تقدم إلى يوم الجمعة، قال: «**من راح في الساعة الأولى**»[٢] وهذا في أول النهار، وقول من يقول: إن الرواح في آخر النهار ولا يصح لغير ذلك قولٌ لا أصل له.

فاللغة العربية تدل على أن الرواح وإن كان في الأصل يكون بعد الزوال لكن قد يطلق على مجرد الذهاب، حتى في لغتنا العامية الآن تقول للرجل في الصباح: أين ذهبت؟ فيقول: رحت لفلان، فقوله: «**راحوا إلى جمع**» متى راحوا؟ لا يذهبون إلى جمع إلا بعد غروب الشمس، «**فباتوا بمشعر الحرام وصلوا الفجر ثم تقدموا**».

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣.
(٢) أخرجه البخاري في الجمعة، باب فضل الجمعة (٨٨١) ومسلم في الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٥٠).

٥٧ إلى الجمرةِ الكبرى يُريدون رَمْيَها لوقتِ صلاةِ العيدِ ثم تَيَمَّمُوا
٥٨ منازلَهم للنحرِ يبغُونَ فضلَه وإحياءَ نُسْكٍ منْ أبيهم يُعَظَّمُ
٥٩ فلو كانَ يُرضي اللهَ نحرُ نفوسِهم لدانُوا به طَوْعاً وللأمر سَلَّمُوا
٦٠ كما بَذلوا عندَ الجهادِ نحورَهم لأعدائِه حتى جَرَى مِنْهُمُ الدمُ
٦١ ولكنهم دانُوا بوضعِ رؤوسِهم وذلك ذلٌّ للعبيدِ ومِيْسَمُ

(٥٧) وهذا واضح أنهم باتوا في المشعر الحرام، ثم وقفوا فيه إلى أن يسفروا جداً، ثم تقدموا إلى الجمرة الكبرى - وهي جمرة العقبة - يرمونها لوقت صلاة العيد، ثم تيمموا.

(٥٩ - ٦٠ - ٦١) يعني: هؤلاء نَزَّلوا شعور رؤوسهم تعظيماً لله، فإنَّ حلق الرأس لا شك أنه تعظيم، بل إن العسكر الآن إذا مر بهم من يعظمونه خلعوا ما فوق رؤوسهم من القلنسوات تعظيماً له، فهذا تعظيم لله، ولو رضي الله منهم أن يحلقوا نفوسهم لحلقوها، يعني لذبحوا أنفسهم، انظر إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أمره الله تعالى يذبح ابنه ماذا صنع؟ امتثل، مع أنه ليس له ابن سواه وقد جاءه على كبر، ولكنه امتثالاً لأمر الله استسلم إلا أن رحمة الله عز وجل أدركته، فأوحى الله تعالى إليه أن يفديه بذبح عظيم وآتاه أجره كاملاً.

وبنو إسرائيل لما قيل لهم في التوبة: اقتلوا أنفسكم قتلوا أنفسهم أخذوا سكاكين واجتمعوا ثم صار بعضهم يقتل بعضاً تحقيقاً للتوبة، فالمؤمنون لو أن الله رضي منهم أن يقتلوا أنفسهم لكانوا يقتلونها، يعني لو قال لك ربك: اقتل نفسك، فمقتضى الإيمان أن تقول: سمعاً وطاعة وتقتل نفسك، ثم ضرب المؤلف رحمه الله مثلاً فقال:

كما بَذلوا عندَ الجهادِ نحورَهم لأعدائِه حتى جَرَى مِنْهُمُ الدمُ

فالمؤمن حقاً، المحب لله المعظم له لا يهمه أن يقدم نحره لعدوه وعدو ربه إعلاءً لكلمة الله عز وجل، فهم بذلوا نحورهم لأعدائه

٦٢ ولما تقضّوا ذلك التَفَثَ الذي عليهم وأوفَوا نذرَهم ثم تَممَّوا

٦٣ دَعَاهُم إلى البيتِ العتيقِ زيارةً فيا مرحباً بالزائرين وأكْرَمُ

حتى جرى منهم الدم، حتى إن الواحد منهم إذا طعن قال: فزتُ وربِّ الكعبة، ويرى أن هذا فوز - وهو والله فوز -؛ لأنه ينتقل من حياة الصخب والندم والتعب والحزن والتنغيص والتكدير إلى دار فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1]، وهذه الربوبية الخاصة إضافة خاصة لم ينلها إلا من كان مثلهم أو أعلى منهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ حيٌّ يرزق، أرواحهم في أجواف طير خضر - نسأل الله من فضله -، تسرح في الجنة، وتأكل حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، هذا فضل عظيم لما خرجت أنفسهم من هذه الأجساد الذائبة الترابية جعلت في أجساد طير خضر، يسرح في الجنة حيث شاء، فلذلك قتلهم في سبيل الله فوز لهم ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال:

ولكنهم دانُوا بوضعِ رؤوسِهم وذلك ذلٌّ للعبيدِ ومِيْسَمُ

«ميسم» يعني علامة على الذل.

(٦٢ - ٦٣) قال: «**تقضوا ذلك التفث**» يعني أنهم تحللوا وقصوا أظفارهم وما ينبغي قصه من الشعور وإزالته وأوفوا النذر بذبح الأنساك ثم تمموا

دَعَاهُم إلى البيتِ العتيقِ زيارةً فيا مرحباً بالزائرين وأكْرَمُ

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩.

٦٤ فَلِلّهِ ما أَبْهَى زيارَتَهُمْ له ... وقد حَصَلَتْ تلك الجوائزُ تُقسَمُ
٦٥ ولله إفضالٌ هناكَ ونِعْمةٌ ... وبِرٌّ وإحسانٌ وجودٌ ومَرْحَمُ
٦٦ وعادُوا إلى تلكَ المنازلِ مِن مِنَى ... ونالُوا مُنَاهُم عندَها وتَنَعَّمُوا
٦٧ أقامُوا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... وأُذنَ فيهمْ بالرحيلِ وأُعْلِمُوا
٦٨ وراحُوا إلى رمي الجمارِ عشيةً ... شعارُهُمُ التكبيرُ واللهُ مَعْهُمُ
٦٩ فلو أبصرتْ عيناكَ موقفَهم بها ... وقد بَسَطوا تلك الأكفِ ليُرحَموا
٧٠ ينادونَه يا ربِّ يا ربِّ إننا ... عبيدُك لا ندعو سِواك وَتَعْلَمُ
٧١ وها نحنُ نرجو منك ما أنتَ أهلُه ... فأنت الذي تُعْطي الجزيلَ وتُنْعِمُ

دعاهم الله عز وجل إلى البيت العتيق، والعتيق القديم، وقيل: العتيق الذي يَعْتُقُ من النار من طاف حوله.

(٦٤) «**لله ما أبهى**» هذه كلمة تعجبية كقول العرب: لله دره، فـ «**ما أبهى**» من البهاء والحسن «**وقد حصلت تلك الجوائز تقسم**».

(٦٥) هذا طواف الإفاضة.

(٦٦) هذا الرجوع من طواف الإفاضة يوم العيد للمبيت بمنى.

(٦٧) «**أقاموا بها يوماً**» الظاهر أنه أول أيام التشريق «**ويوماً**» الثاني «**وثالثاً**» الثالث.

(٦٨) «**وراحوا إلى رمي الجمار عشية**» يعني بعد الزوال في اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، «**شعارهم التكبير والله معهم**» يعني يكبرون ولا يلبون؛ لأن التلبية انقطعت عند رمي جمرة العقبة يوم العيد، وأيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل.

(٦٩ - ٧٠ - ٧١) ويعني بهذا الدعاء ما بين الجمرتين الأولى والوسطى، والوسطى وجمرة العقبة.

٧٢ ولما تَقضّوا من منىً كلَّ حاجةٍ — وسالتْ بهم تِلكَ البطاحُ تَقَدَّمُوا
٧٣ إلى الكعبةِ البيتِ الحرامِ عشيةً — وطافوا بِهَا سَبْعاً وصَلَّوا وسَلَّمُوا
٧٤ ولما دنا التوديعُ منهم وأيقنوا — بأنَّ التَّدَانِيْ حَبلَهُ مُتَصَرِّمُ
٧٥ ولم يبقَ إلا وقفةٌ لمودعٍ — فللهِ أجفانٌ هناكَ تُسَجَّمُ
٧٦ وللهِ أكبادٌ هنالكَ أُوْدِعَ الـ — غرامُ بها فالنارُ فيها تَضَرَّمُ
٧٧ وللهِ أنفاسٌ يكادُ بحرِّها — يذوبُ المحبُ المستهامُ المُتَيَّمُ
٧٨ فلم تَرَ إلا باهِتاً مُتَحيِّراً — وآخَر يُبْدي شجوَهُ يترنَّمُ
٧٩ رحلتُ وأشواقي إليكم مقيمةٌ — ونارُ الأسى مِني تُشبّ وتُضْرَمُ
٨٠ أودّعُكم والشوقُ يثْنِي أعنّتي — وقلبيَ أمْسَى في حِماكُم مُخَيّمُ
٨١ هُنالك لا تَثْريبَ يوماً على امرئٍ — إذا ما بَدا منه الذي كانَ يَكْتُمُ

(٧٢ - ٧٣) هذا طواف الوداع، كأن المؤلف رحمه الله يريد أن يسوق صفة الحج على صفة ما فعله رسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ لما رمى الجمرات يوم الثالث عشر بعد الزوال نزل إلى مكة، وأقام في الأبطح - المُحَصَّبْ - فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ولما كان في آخر الليل أَذّنَ بالرحيل فارتحل من الأبطح إلى مكة، وطاف للوداع ثم صلى الصبح هناك ثم ركب راجعاً إلى المدينة صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه قضى حاجته وانتهى الحج وهو ما جاء إلا للحج.

(٨٠) الله أكبر هذا تصوير عجيب لحال الإنسان عند طواف الوداع كيف يكون في هذه الحال قلبه مربوط بالبيت أشواقه لا تتعداه ولكن لا بد من الفراق !

(٨١) يكتم من الأشواق والأحزان لفراق البيت، والعادة أن مثل هذا يلحقه البكاء، فهذه حالهم عند فراق البيت، وإذا قست هذه الحال

٨٢	فيا سائقينَ العيسَ باللهِ ربِّكم	قِفُوا لي على تلكَ الربوعِ وسلِّموا
٨٣	وقولوا مُحبٌّ قادَه الشوقُ نحوَكم	قضَى نحبَه فِيكم تَعِيشُوا وَتَسْلَمُوا
٨٤	قضى اللهُ ربُّ العَرْشِ فيما قضَى به	بأنَّ الهوى يُعْمِي القلوبَ وَيُبْكِمُ
٨٥	وحبُّكُم أصلُ الهدى ومدارُه	عليه وفوزٌ للمحبِ وَمَغْنَمُ
٨٦	وتَفْنَى عظامُ الصَّبِّ بعدَ مَماتِهِ	وأشواقُه وَقْفٌ عليه مُحَرَّمُ

التي صورها المؤلف رحمه الله بحالنا اليوم وجدت الفرق العظيم بيننا وبين هذه الحال التي ذكر المؤلف رحمه الله، فغالب الناس يرددون خلف هؤلاء المطوفين، ولا يدري ماذا يقول ولا ما يقال له. أحياناً يحرف المطوف الكلم عن مواضعه وذاك يحرف معه، يأتي في أيام العمرة ويقول «اللهم اجعله حجاً مبروراً وذنباً مغفوراً» ما أدري هل هو مطلع على حديث عمرو بن حزم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمى العمرة حجاً أصغر أو أنه على الأصل؟! لكنهم الآن بدؤوا يقولون: اللهم اجعلها عمرة مقبولة، وكأنهم نبهوا على هذا، لكن الحاج المسكين أحياناً لا يدري ماذا يقول، فلو أنك تستمع إليهم وهم ينقلون هذه الكتيبات ويدعون لسمعت العجب العجاب، أقول: إن من تصور هذه الحال التي ذكرها المؤلف رحمه الله وقرنها بأحوالنا اليوم لوجد الفرق العظيم.

(٨٢-٨٣) **«العيس»**: الإبل، **«قضى نحبه»**: أي هلك فقضى حاجته من الدنيا.

(٨٤) هذا صحيح؛ فالإنسان الذي له هوى تجده أعمى وأبكم، أعمى لا يرى الحق، وأبكم لا ينطق بالحق، هذا هو صاحب الهوى - والعياذ بالله -، ولهذا لا يؤمن أحدنا حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول صلى اب عليه وسلم.

(٨٦) **«الصب»** معناه المُحب، ومنه الصَبَابة يعني الحب الذي يميل صاحبه إلى محبوبه كأنما هو الماء يتصبب من العالي.

٨٧ فيا أيُّها القلبُ الذي ملكَ الهَوَى أزمتَه حتى مَتَى ذَا التَلوّمُ
٨٨ وَحَتَّامَ لا تَصْحُو وقد قَرُبَ المَدى ودُنَّتْ كؤوسُ السيرِ والناسُ نُوَّمُ
٨٩ بلى سوفَ تَصْحُو حين ينكشفُ الغَطا ويبدو لك الأمرُ الذي أنتَ تَكْتُمُ
٩٠ ويا موقِداً ناراً لغيركَ ضَوْءُهَا وَحرُّ لظَاهَا بَيْنَ جَنْبَيكَ يُضْرَمُ
٩١ أهذا جنَى العلمِ الذي قد غرسْتَهُ وهذا الذي قد كنتَ ترجُوهُ يُطْعِمُ

---

(٨٧) الآن بدأ يخاطب نفسه، يخاطب قلبه «**الذي ملك الهوى أزمته**» يعني: جمع زمام، وهو ما تقاد به البعير.

(٨٨) يعني: لماذا لا تصحوا والمدى قد قرب؟ ويعني به الموت «**ودنت كؤوس السير**» يعني قُرِّبَت «**والناس نوم**» فكأنه يحث نفسه على انتهاز الفرصة، والعمل قبل أن يدنو الأجل.

(٨٩) بلى هذه للإضراب،

بلى سوفَ تَصْحُو حين ينكشفُ الغَطَا ويبدو لك الأمرُ الذي أنتَ تَكْتُمُ

وهذا كقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾[(١)]، وكقوله في سورة ق: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(٢)] ولكن هل ينفع هذا الانكشاف في ذلك اليوم؟ لا؛ لأن ذلك اليوم يوم جزاء وليس يوم عمل.

(٩٠ - ٩١) يعني يخاطب عالماً لم ينتفع بعلمه، موقداً ناراً وضوؤها لغيره وحرها بين جنبيه، فغيره منتفع بعلمه، وهو لم ينتفع بعلمه، يقول: «**أهذا جنى العلم الذي قد غرسته؟!**» أن تنفع الناس بعلمك ولا تنفع نفسك، وهذا الاستفهام استفهام إنكار.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٦٣.
(٢) سورة ق آية ٢٢.

٩٢ وهـذا هـو الـحـظُ الـذي قـد رَضِـيْـتَـهُ لـنـفـسـكَ فـي الـداريـن جَـاهٌ ودِرْهَـمُ
٩٣ وهـذا هـو الـربـحُ الـذي قـد كـسـبـتَـهُ لـعـمـرُكَ لا ربْـحٌ ولا الأصـلُ يُـسْـلَـمُ

---

(٩٢) الله أكبر! كل حظوظ الدنيا تعود إلى هذين الأمرين كما قال المؤلف رحمه الله: «**جاه ودرهم**». كثير من الناس - ولو كان عالماً - لا يرضى من علمه إلا أن يكون له جاه بين الناس، أو إنسان يحب المال فيجمع المال بعلمه، وكلا الإرادتين إرادة خسيسة مذمومة ؛ لأن العالم لا ينبغي له أن يكون همه أن يكون له جاه أو ليس له جاه، ينبغي أن يكون همه أن تكون كلمة الله هي العليا ؛ لأنه مجاهد في سبيل الله، أما كونه يكرم عند الناس أو لا يكرم، هذا إنما يسعى له من يريد النفع الذاتي لنفسه فقط، وهو في الحقيقة ما أراد النفع ؛ لأن النفع الحقيقي بعلمك أن تقصد به وجه الله وإعلاء كلمته، حتى تكون شريعة الله هي المتمكنة في أرض الله.

(٩٣) أي: لا ربح في الحقيقة لإنسان ما ربح من علمه إلا جاهاً في الدنيا أو درهماً، فالذي لا يربح من علمه درجات عند الله عز وجل فهو خاسر، والقرآن حجة لك أو عليك نسأل الله أن يخلص لنا ولكم النية، يقول: «**لعمرك لا ربح ولا الأصل يسلم**» ما حصلت ربحاً والأصل ما سلم ؛ لأنه جاء في الحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أن من طلب علماً وهو مما يُبْتَغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة**»[1]، نعوذ بالله فالأمر خطير.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله (٣٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢)، وأحمد (٢/٣٣٨).



٩٤ بـخـلـتَ بـشـيء لا يَـضُـرُّك بـذلُـهُ وجُـدْتَ بـشـيءٍ مـثـلُـه لا يُـقـوَّمُ
٩٥ بَخِلتَ بذا الحظِ الخسيسِ دَنَاءَةً وجُدْتَ بدارِ الخُلْدِ لو كنتَ تَفْهَمُ
٩٦ وبِعتَ نعيماً لا انقضاءَ له ولا نظيرَ بِبَخْسٍ عن قليلٍ سَيُعْدَمُ

(٩٤ - ٩٥) هذه «لو» للتمني يعني ليتك تفهم، فتأمل كيف بخل بشيء لا يضره بذله وهو الدنيا، فالدنيا لو ذهبت كلها عنك لم يضرك، «**وجدت بشيء مثله لا يقوم**» وهو الجنة - نسأل الله من فضله - فالجنة لا يمكن أن يكون قيمة لها كلُّ الدنيا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[(١)]، وموضع السوط بمقدار متر تقريباً، خير من الدنيا وأيُّ دنيا؟ ليست دنياك التي تعيشها ولا دنيا عصرك بل الدنيا كلها من أولها إلى آخرها موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، كل الذين يسعون للجاه أو يسعون للمال ماذا يصيبهم؟ هو - إن حصلوا عليه - الجاه والمال وكل هذا لا يساوي شيئاً عند الله عز وجل فما بالنا نهدم هذا الصرح العظيم صرح العلم بهذه النية الدنيئة؟! فالواجب أن يصحح الإنسان نيته في طلب العلم وهذا من الآداب.

(٩٦) نعيم الجنة لا انقضاء له ولا نظير له قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[(٢)]، وقال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[(٣)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط (١٦٦٤)

(٢) سورة السجدة آية ١٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

٩٧ فهلّا عكستَ الأمرَ إن كنتَ حازماً ولكنْ أضعتَ الحزمَ لو كنتَ تعلمُ
٩٨ وتهدمُ ما تبني بكفِكَ جاهداً فأنت مدى الأيامِ تبني وتَهْدِمُ
٩٩ وعند مرادِ الله تَفْنَى كميّتٍ وعندَ مرادِ النفسِ تُسْدِي وتُلْحِمُ
١٠٠ وعند خلافِ الأمر تحتَجُّ بالقضاء ظهيراً على الرحمن للجَبْرِ تَزْعُمُ

ليس شيء في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، فهنا رمان وهناك رمان، ولكن فرق عظيم بينهما.

(٩٧) «**هَلاَّ**» هنا للتحضيض، يعني: يحضنا المؤلف رحمه الله على أن نعكس الأمر، وكيف نعكس؟ نجود بشيء لا يضرنا بذله، ونبخل بشيء مثله لا يُقَوَّم، نعض عليه بالنواجذ، كذلك أيضاً نبيع الشيء الخسيس الدنيء بشيء لا نظير له ولا نفاد.

(٩٨) هذا حال من أضاع نفسه يبني ويهدم ليس البناء الحسي؛ وإنما البناء المعنوي، فتجده يفعل طاعةً ويفعل معصية، ويظلم ويفسد ويصلح ويعدل، وهكذا، يبني ما يهدم ويهدم ما يبني دائماً، فهو يقول: «**فأنت مدى الأيام تبني وتهدم**».

(٩٩) الله أكبر؛ «**عند مراد الله**» شرعاً أو قدراً؟ شرعاً يعني الذي يريده الله منك شرعاً تفنى كميت، يعني لا تتحرك، يأمرك الله فلا تأتمر، وينهاك فلا تنتهي، «**وعند مراد النفس تسدي وتلحم**»: السُدَى واللحمة في الذين يأخذون الغزل وينسجونه، النسيج له سدى ولحمه وإذا جُعِل في النسيج السدى واللحمة صار نسيجاً محكماً، فعند مراد النفس تنسج تماماً من أحسن ما يكون، لكن عند مراد الله تفنى كميت!

(١٠٠) أي: إذا خالفت أمر الله قلت: هذا قضاء وقدر، وإذا أشركت قلت: هذا قضاء وقدر، وإذا زنيت، قلت: هذا قضاء وقدر، وإذا شربت الخمر، قلت: هذا قضاء وقدر «**ظهيراً على الرحمن للجبر**

١٠١ تُنَزِّهُ مِنْكَ النفسَ عن سوءِ فعلها وَتُعْتِبُ أقدارَ الإلهِ وتَظْلِمُ
١٠٢ تُحِلُّ أموراً أَحْكَمَ الشرعُ عَقْدَها وَتقْصِدُ ما قد حَلّهُ الشرعُ تُبْرِمُ
١٠٣ وتفهمُ من قولِ الرسولِ خلافَ ما أراد لأنّ القلبَ منك مُعَجَّمُ

تزعم» ظهيراً يعني معيناً عليه يعني تحتج على الله بقضائه، فكأنك تقيم الحجة على ربك فتقول: يا رب أجبرتني.

(١٠١) النفس تنزهها تقول: أنا ما أريد الظلم لكن هذا القضاء والقدر هو الذي جعلني أظلم أو أكذب أو أسرق . . .الخ، وهذه حال كثير من الناس، عند فعل المعاصي من أهل الجبر، وعند فعل الطاعات قدري، فهو جبري عند المعاصي قدري في الطاعات، فالقدرية يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله وليس لله فيه إرادة ولا قدرة، فإذا فعل الطاعة قال: هذا مني وفخر بها على الله عز وجل، وإذا فعل معصية قال: هذا من الله فهو مُجْبَرٌ، فيكون جبرياً في المعاصي قدرياً في الطاعات، ولهذا قال:

تُنَزِّهُ مِنْكَ النفسَ عن سوءِ فعلها وَتُعْتِبُ أقدارَ الإلهِ وتَظْلِمُ

(١٠٢) هذه المعاكسة التامة، وهي من صفات الإنسان المذمومة، أن الأمور التي أبرمها الشرع يحلها، وما حله الشرع يبرمه، ففي الواجبات التي أحكمها الشرع وأمر بها يذهب يحلُها ويفكك عقدها، وفي المحرمات يضيّق ولا يهمه ما حرمه الشارع، فهو في الواقع مخالف لأمر الشارع في النهي والأمر، كأنما يقول: هذا حلال لما حرم الله، وهذا حرام لما أحل الله عز وجل.

(١٠٣) فإذا قال النبي ﷺ قولا فإنك تفهم منه خلاف ما أراد، وأهل الباطل بالنسبة لأقوال الرسول عليه الصلاة والسلام يسعون أولا إلى إبطالها والشك في ثبوتها، فيقولون - مثلاً -: هذه أخبار

١٠٤ مطيعٌ لداعي الغي عاصٍ لرشدهِ   إلى ربه يوماً يُردّ ويُعْلَمُ

آحاد لا تفيد القطع فلا يجوز أن نبني العقيدة عليها. وردوا - بناء على هذه القاعدة الفاسدة الدامرة الخاربة - أشياء كثيرة من أحاديث الصفات الذاتية والفعلية بناء على أنها أخبار آحاد لا تفيد القطع، والعقيدة لا بد فيها من القطع كأنما نسوا قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾(١)، هذا مقام الرسالة ومقام الرسالة عقيدة ومع ذلك قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، ومن المعلوم أن خبر غيرك لا يفيد القطع عندك وإنما يفيد الظن وغلبة الظن، إذاً هذا أول معول يهدمون به النصوص فإذا عجزوا عنها وكانت النصوص متواترة عمدوا إلى أمر آخر وهو التعطيل عن طريق التحريف، فالتحريف أصوب من التأويل، فهم يقولون: تأويل، ونحن نقول: تحريف، لكنهم يقولون: تأويل ليخفَّ الأمر إذ لو قالوا: إنه تحريف لنفر الناسُ منه وما قبلوا منهم صرفاً ولا عدلاً، ولكن يقولون: تأويل من باب التلطيف، ونحن نقول: ليس هذا بتأويل؛ لأن التأويل هو أن يفسر كلام الله ورسوله بما أراد الله ورسوله، هذا التأويل الحقيقي الصحيح، أما أن يحرف فهذا التحريف، فهم يفهمون من قول الرسول عليه الصلاة والسلام خلاف ما أراد؛ لأن القلب - والعياذ بالله - معجَّم قد أعجم عليه فلا يفهم، ولهذا يجب على الإنسان أن يسأل الله تعالى دائماً أن يفتح عليه، وأن يصرّف قلبه إلى طاعته.

(١٠٤) يعني: أن هذا الإنسان، - أيضاً - يطيع داعي الغي، ولكنه يعصي داعي الرشد، والرشد في كل مقام يجمعه معنى واحد وهو حسن

---

(١) (٢) سورة الأنبياء آية ٧.

١٠٥ مُضِيْعٌ لأمرِ اللهِ قد غَشَّ نفسَه ... مهينٌ لها أنّى يُحَبُّ ويُكْرَمُ

١٠٦ بطيءٌ عن الطاعاتِ أَسْرَعُ للخَنَا ... مِنَ السيلِ في مَجْرَاه لا يَتَقسَّمُ

١٠٧ وَتَزْعُمُ مَعْ هذا بأَنَّكَ عارفٌ ... كَذَبْتَ يقيناً في الذي أنتَ تَزْعُمُ

التصرف، وفي كل مقام بحسبه، ففي باب العبادة أن يقوم الإنسان بما أمر الله به ورسوله ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وفي باب المال أن يبيع ويشتري ويؤجر ويستأجر بدون غبن؛ وفي كل مقام بحسبه، وأما الغي فهو ضد الرشد.

(١٠٥) صحيح أن الذي يضيّع أمر الله غاش لنفسه أكبر غش؛ لأنه يخدعها ويمنيها ويقول: التوبة غداً، نحن في مهلة وما أشبه ذلك، فيهوي من حيث لا يدري.

(١٠٦) قوله «لا يتقسم» يعني: يأتي باندفاع واحد، وكلما أتى السيل باندفاع واحد صار أقوى، وكلما توزع وتفرق صار أخف، فهو يقول: إنك بالنسبة للخنا - وهو الفساد والمعاصي والفجور - أسرع من السيل في مجراه، وبالنسبة للطاعات بطيء.

(١٠٧) يعني: مع كون هذا الإنسان متصفاً بهذه الصفات القبيحة يدعي أنه عارف، وهذا له نصيب من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١)، وما ضاع الإنسان إلا بمثل هذا، لو أن الإنسان عرف نفسه وعرف أنه ضال وأنه ليس على هدى سهل عليه أن يتعدل، لكن المشكلة أن يبقى في غيه ثم لا يظن أنه على خطأ؛ وهذا هو البلاء.

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٣ - ١٠٤.

١٠٨ ومَا أَنْتَ إلا جاهلٌ ثم ظَالمٌ وإنَّك بين الجَاهِلين مُقَدَّمُ
١٠٩ إذا كان هذا نُصْحُ عبدٍ لنَفْسِهِ فَمَنْ ذا الذي منه الهُدَى يُتَعلَّمُ
١١٠ وفي مثلِ هذا الحالِ قد قال مَنْ مضى وأَحْسَنَ فيما قاله المُتَكلمُ
١١١ فإنْ كنتَ لا تدري فتلك مُصيبةٌ وإن كنتَ تدري فالمصيبةُ أَعْظَمُ
١١٢ ولو تبصرُ الدنيا وراءَ سُتُورِها رأيتَ خيالاً في منامٍ سيُصْرَمُ
١١٣ كحُلْمٍ بطيفٍ زار في النومِ وانقضى الـ ـمنامُ وراحَ الطيفُ والصبُّ مُغْرَمُ
١١٤ وظلٍ أرتْه الشمسُ عندَ طلوعِها سيَقْلِصُ في وقتِ الزوالِ ويَفْصِمُ

---

(١٠٨) قوله «**إنك**» يجوز فيها فتح الهمزة وكسرها، فالفتح يعني: وما أنت إلا أنك بين الجاهلين مقدم، «**جاهل**» لا تعرف، «**وظالم**» لا تعدل، ومن هنا يحصل الخلل وتضيع الأمانة كما قال الله عز وجل: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [(١)]، وهذا الذي ذكر المؤلف - الجهل والظلم - بهما يكون الفساد، فبالجهل لا يدري ما هو الحق حتى يتبعه، وبالظلم يعلم ولكنه لا يعدل بل يظلم.

(١٠٩) والجواب لا أحد، فإذا كان هذا هو النصح فلا أحد يتعلم من غيره.

(١١١) أي: إنْ كنت لا تدري فتلك مصيبة، والمصيبة الجهل، وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم: وهي الظلم، وهذا البيت حكمة ويقال في كل شيء، أحياناً تلوم شخصاً على مسألة ما، فيقول: والله ما دريت، فتقول:

فإنْ كنتَ لا تدري فتلك مُصيبةٌ وإن كنتَ تدري فالمصيبةُ أَعْظَمُ

(١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧) هذه هي حال الدنيا شبهها المؤلف بعدة أمثلة؛ «**كحلم بطيف ....**» الطيف: ما يطوف بالإنسان في

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

١١٥ ومزنةِ صيفٍ طابَ منها مقيلُها فولّتْ سريعاً والحُرورُ تَضَرَّمُ
١١٦ وَمَطْعمِ ضيفٍ لَذَّ منه مساغةُ وبعد قليلٍ حالُ تلك تُعْلَمُ
١١٧ كذا هذه الدنيا كأحلامِ نائمٍ ومن بعدها دار البقاءِ ستقدمُ

النوم مما يحبه من إنسان أو حيوان أو غيره، فالإنسان إذا رأى في المنام شيئاً أحبّه أياً كان من بشر أو غيره فإذا انقضى النوم تعلق قلبه بما رأى لكن أنى له ذلك، هكذا الدنيا كأنها أحلام نائم. وأنت الآن تدبر الأمر، لما كنت صغيراً مع زملائك في السوق تفرح وتمرح ولا تذكر شيئاً، تذكر من عندك في البيت أين ذهبوا؟ وأين راحوا؟ تذكر كل ما مضى تجد أنه كالحلم، راح وكأنه لم يكن كأنها أحلام رأيتها البارحة، أو في أقرب نومة نمتها وذهبَتْ، اعتبر المستقبل بالماضي، فهذا المستقبل الذي تراه أمامك وكأنه آلاف السنين سوف يزول كما زال ما مضى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[1]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾[2]، هكذا الدنيا؛ كذلك أيضاً «**كظل أرته** . . .» سيقلِص أو سيُقلص. الظل طيب وبارد ولذيذ تريه الشمس الرائي إذا طلعت، ثم ينقص عند الزوال ويضمحلّ ويزول؛ هكذا أيضاً الدنيا عند الزوال تزول، دار كهذه هل يليق بالعاقل - فضلاً عن المؤمن - أن يجعلها في قلبه أغلى من دار البقاء؟! الجواب: لا والله؛ لا يليق بعاقل - فضلاً عن المؤمن - أن يجعلها في قلبه أغلى من دار البقاء، أو ينظر إليها نظرة راغب فيها زاهد في الآخرة؛ لأنه يرى أمه وأباه وأخته وأخاه وولده وزوجه كلهم كانوا معه على

---

(١) سورة النازعات آية ٤٦.
(٢) سورة الأحقاف آية ٣٥.

. . . .

ظهر هذه الدنيا ثم زالوا وراحوا، ودَّعُوا وخلصوا من الدنيا، وما بقي إلا الجزاء فقط، كأن لم يكونوا على هذه الدنيا:

بينا يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار

فهو في الدنيا مخبر يتحدث، كان فلان وكان فلان، وصحبت فلاناً وزارني فلان، وزرت فلاناً؛ يخبر عمن مضى ثم سيكون هو الخبر فيقال: زرنا فلان وزارنا فلان وجلسنا مع فلان وجلس معنا؛ وهو في قبره مرتهن بعمله هذا هو الحقيقة الواقعة لهذه الدنيا، فإذا كانت هذه هي الحقيقة الواقعة لهذه الدنيا فكيف نغالي فيها؟! وكيف نؤمل البقاء؟! وكيف نجعل ما نحصله منها أكثر في نفوسنا وأكبر مما نحصله للآخرة؟! وما ذلك إلا من جهلنا وظلمنا. قال: «**ومزنة صيف...**» هذا إنسان في الفلاة في الحر الشديد أظله الله تعالى بمزنة - قطعة من الغمام بيضاء باردة - والمزن كما نعرف جميعاً يمشي، هذه المزنة أظلته ساعة من الزمن ثم راحت فبقي عنده الحر يتضرم، وهكذا الدنيا أيضاً، وقد شبهها الرسول عليه الصلاة والسلام بأنها مثل الإنسان الذي قَالَ في ظل دوحة ثم قام وتركها[(١)]، قَالَ فيها حتى صار آخر النهار وبرد الجو ثم قام فتركها، قال: «**ومَطْعَم ضيف. . .**» والعجب أن هذا وصفها وهذه حقيقتها، ثم الإنسان لا يدري متى يرتحل منها، والغريب أن تكون في نفوسنا إلى هذا الحد من الغلا ونحن لا ندري أيَّ ساعة نجيب داعي الله عز وجل! فلا يدري الإنسان،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب حديث ما الدنيا إلا كراكب استظل (٢٣٧٧)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١ - ٤٤١).

. . . .

ولا يستطيع أن يحكم بأنه سيدرك غداً، إذا أصْبَحْتَ فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وهذه الحقيقة ليست أحاديث مجالس، هذه حقيقة واقعة فهل أحدٌ يستطيع أن يجزم بأنه سيعيش إلى غد؟! أبداً؛ إذاً مهما طابت الدنيا والله ليس فيها خير، إلا ما كان منها مزرعة للآخرة، فنعم الدار هي، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام في المال: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[1]، و«**خيركم من طال عمره وحسن عمله**»[2]، فإذا كان الإنسان يعدها مزرعة للآخرة؛ لا يقول قولاً ولا يفعل فعلاً ولا يدع شيئاً إلا وهو يريد التقرب به إلى الله، حتى مكالمة إخوانه والأُنْسَ إليهم يبتغي بذلك وجه الله حينئذ تكون مزرعة للآخرة؛ بل تكون جنة مقتطعة ومقدمة من الآخرة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما أدخلوه في الحبس قال: «ما يفعلُ أعدائي بي - يعني أي شيء يفعلونه - إن جنتي في صدري» جنته في صدره - رحمه الله -، علم وإيمان ونور وطمأنينة هذه الجنة، وليست الجنة هي البستان الذي يملكه الإنسان وفيه نخيل تهتز وفواكه وغيره، هذه جنة جسد، لكن جنة القلب لا يعدلها شيء قال: «جنتي في صدري، إنّ حبسي خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة»، الله أكبر! انظر إلى اليقين العجيب، سبحان الله العظيم! وهذا من يقين الرسل عليهم الصلاة والسلام:

لما خرج موسى بقومه واتبعهم فرعون بقومه وصاروا بين البحر

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٧ - ٢٠٢).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب أي الناس خير وأيهم شر (٢٣٣٠)، وأحمد (٥/ ٤٠-٤٧).

١١٨ فَجُزْهـا مـمـراً لا مَـقَـراً وكُـنْ بـهـا غـريـبـاً تـعـش فـيـهـا حـمـيـداً وَتَـسْـلَـمُ
١١٩ أو ابـنَ سـبـيـلٍ قـال فـي ظـلِ دوحـةٍ وراحَ وخـلَّـى ظـلَّـهـا يَـتَـقـسّـمُ
١٢٠ أخـا سـفـرٍ لا يـسـتـقـرُ قَـرَارُه إلـى أن يـرى أوطـانَـه ويُـسَـلِّـمُ

وبين فرعون وجنوده، فقال أصحاب موسى إنا لمدركون، البحر أمامنا إن خضناه غرقنا، وفرعون وجنوده خلفنا إن أدركنا أهلكنا، فقال بطمأنينة : كلا، لسنا مدركين؛ إن معي ربي سيهدين. الله أكبر ! انظر إلى اليقين في هذه الشدة، فأوحى الله أن يضرب البحر فضربه فانفلق في الحال ويبس في الحال ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ (١). فخرجوا كلهم عن آخرهم ودخل فرعون بجنوده عن آخرهم، فأوحى رب العزة والجلال إلى هذا البحر أن انطبق فانطبق على فرعون وجنوده فغرقوا وأولئك نجوا، الله أكبر ! اللهم ارزقنا الإيمان واليقين، ولا يصل إلى هذه الدرجة إلا من منَّ الله عليه باليقين التام، فينبغي للإنسان أن يجعل هذه الدنيا مزرعة للآخرة لينتفع منها.

(١١٨ - ١١٩ - ١٢٠) هذه نصيحة من ابن القيم - رحمه الله - أن نجوز هذه الدنيا على أنها ممر لا مقر، وأن نكون فيها غرباء كالغريب الذي لا يريد الاستيطان فإنك تعيش حميداً وتسلم، لكن البلاء كلُ البلاء أن يتخذها الإنسان مقراً وموطناً ؛ لأنه إذا اتخذها مقراً وموطناً غفل عن الآخرة بلا شك ؛ لأنه يرى أنه هذه موطنه مع أنه يوم القيامة يقول : ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢)، ويقول الله عز وجل : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ (٣). هي الحياة

---

(١) سورة طه آية ٧٧.
(٢) سورة الفجر آية: ٢٤.
(٣) سورة العنكبوت آية: ٦٤.

١٢١ فيا عجباً كم مصرعٍ وعَظَتْ به   بنيها ولكن عن مصارعها عَمُوا

العظيمة الحقيقية ولهذا جاءت ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ أي الحياة الكاملة. وهنا يقول: «**تعش فيها حميداً وتسلم**».

(١٢١) من العجب أن مصارع الدنيا التي وعظت بها بنيها كثيرة، ولكن عن مصارعها عموا، ولنأخذ أمثلة من هذا: ما أكثر ما نرى من الأغنياء يعودون فقراء، فبينما يتكفف الناس إليهم أيديهم صاروا يتكففون الناس، فمثل هؤلاء، الموت خير لهم من الحياة؛ لأنهم ذاقوا الذل بعد العز، وكم من إنسان قوي العضلات في عنفوان شبابه ونضارة وجهه أصيب بحادث أهزله بعد السمن، واغبرَّ وجهُه بعد النضارة، وصار من رآه يرق له ويحزن عليه، وكم من إنسان بنى وأمّل وذهب خياله إلى زمن بعيد ولكنه لم يسكن ما بنى، وكم من إنسان غرس وحرث يؤمل أن يستمتع بثمرات ما غرس وما زرع ولكن يحال بينه وبينه، - وخذ من هذه الأمثلة الكثيرة -، وكم من أناس نحن عَلِمْنَاهم في عصرنا وسمعنا عنهم فيما سبقنا كانوا كثرة مجتمعين؛ أخ مع أخيه مع أبنائهم مع بناتهم مع أهليهم مجتمعين في بيت أو في بيوت متقاربة وعلى أحسن ما يكون من الأنس والفرح والسرور فإذا بهم يتفرقون بموت أو مصائب أو فقر أو عدو أو غير ذلك، أليس هذا واقعاً؟ بلى واقعاً وكثيراً، إذاً لماذا لا نتعظ؟! يجب علينا أن نتعظ بما تعظ به الدنيا بنيها، ولكن كيف نتعظ؟! ليس الاتعاظ معناه أن نبكي إذا ذكرنا هذه الأحوال، بل الاتعاظ أن نتخذ منها عبرة، وأن هذه الدنيا ليست دار مقر وليست دار نعيم مقيم، وأن الآخرة هي دار المقر وهي دار النعيم المقيم، فنأخذ من هذه الدنيا ما نجعله سَلَمَاً للآخرة، كأنما تقدم الثمن لسلعة منتظرة،

١٢٢ سقتهُمْ كؤوسَ الحبِ حتى إذا نَشَوا ... سقَتهُم كؤوسَ السُّمِّ والقومُ نوَّمُ
١٢٣ وأعجبُ ما في العبدِ رؤيةُ هذه الـ ... ـعظائمِ والمغرورُ فيها متيَّمُ
١٢٤ وما ذاك إلا أنَّ خمرةَ حبِّها ... لتسلبُ عقلَ المرء منه وتَصْلِمُ
١٢٥ وأَعْجَبُ من ذا أنّ أحبابَها الأولى ... تُهينُ وللأعدا تُراعي وتُكرِمُ

وحينئذ تربح الدنيا والآخرة، ولا أحد ألذ وأنعم عيشاً وأطيب قلباً وأهدأ بالاً مثل المؤمن العامل للصالحات ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(١)، فيجب أن نلاحظ الأمر بدقة ونعرف ماذا صنعنا؟ أين الإيمان الذي يحل بالقلب حتى تتساوى عنده أقدارُ الله عز وجل من الخير والشر فيطمئن إليه، وإن كان الشر لا ينسب إلى الله تعالى لكنه من قضائه أي من مقتضياته. فتجد المؤمن مطمئناً، إن أصابته سرّاء شكر ولم يحمله ذلك على الأشر والبطر، وإن أصابته ضراء صبر ولم يحمله ذلك على الجزع والتسخط وكراهة قضاء الله عز وجل، بل يعلم أن الله له الحكمة فيما قضى وقدر فيطمئن القلبُ ويبقى دائماً مسروراً، واللهِ لا أحد أنعم من الإنسان المؤمن بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب أبداً.

(١٢٢) يعني: أنها تغريهم وتغرهم، فإذا فازوا بها تخدعهم وتمكر بهم.

(١٢٤) «تصلم» يعني تقطع.

(١٢٥) وهذا هو المشكل، أحياناً يكون المتيم بها المحب من أقل الناس حظا فيها؛ تجده لا ينام الليل من طلب الحياة الدنيا، دائما شاغل في فكره وعقله وقوله وفعله، لا ينام ولا يستريح ومع ذلك

---

(١) سورة النحل آية: ٩٧.

١٢٦ وذلك برهانٌ على أنَّ قدرهَا جناحُ بعوضٍ أو أدقُ وألأمُ
١٢٧ وحسبُك ما قالَ الرسولُ ممثلاً لها ولدارِ الخُلْدِ والحقُ يُفهَمُ
١٢٨ كما يدليَ الإنسانُ في اليمِ أَصْبُعاً وينزعُها منه فما ذاك يَغْنَمُ
١٢٩ ألا ليتَ شِعْرِي هل أبيتَنَّ ليلةً على حذرٍ منها وَأمْرِيَ مُبْرَمُ

هو أقل الناس حظا منها وهذا شيء مشاهد ومجرب، وهذا من العجب كيف تجعل أكبر همك ومبلغ علمك هذه الحياة الدنيا التي أنت فيها من أشقى عباد الله ؟!

(١٢٨) يعني مثل الحياة الدنيا في الآخرة كرجل جعل أصبعه في اليم - وهو البحر - ثم نزعه فلينظر بم يرجع ؟ لا يرجع بشيء، وهذا كقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**»(١).

الله أكبر ! هل ينقص؟ لا، لكن هذا من باب تأكيد الشيء بما يشبه النفي «**ما نقص ذلك**» تتوقع أنه سيأتي شيء يبيّن أنه ناقص، قال : «**إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**».

(١٢٩) وفي نسخة (محكم)، يقول ابن القيم رحمه الله : «**ليت شعري**» يعني شعوره، هل أنا أبيت ليلةً على حذرٍ منها، وأمري مبرم؟ كيف لو رآنا الآن ونحن لا نبيت ولا ربع ليلةٍ على حذر منها، بل دائماً على أمنٍ وطمأنينة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

١٣٠ وهـل أرِدَنَّ مـاءَ الـحـيـاة وأَرْتَـوِي ... عـلـى ظـمأٍ مـن حـوضِـه وهـو مُـفْعَـمُ
١٣١ وهـل تَـبْدُوَنْ أعـلامُـهـا بـعـدَمَا سَـفَـتْ ... عـلـى رَبْـعِـهَـا تـلـكَ الـسـوافِـي فـتُـعْـلَـمُ
١٣٢ وهـل أَفْـرِشَـنَ خـدي ثـرى عـتـبـاتـهـم ... خـضـوعـاً لـهـم كَـيْـما يَـرِقُـوا ويَـرْحَـمُـوا
١٣٣ وهـل أَرْمَيَنْ نـفـسـي طـريـحـاً بِـبَـابـهـم ... وطـيـرُ مـنـايـا الـحُـبِ فـوقـي تَـحَـوَّمُ
١٣٤ فـيـا أَسَـفِـي تَـفْـنـى الـحـيـاةُ وتـنـقـضـي ... وذا الـعَـتْـبُ بـاقٍ مـا بـقـيـتـم وعِـشْـتُـمُ
١٣٥ فـمـا مـنـكـمُ بـدٌّ ولا عـنـكـمُ غِـنـى ... ومـالـيَ مـن صـبـرٍ فَـأَسْـلُـوَ عـنـكـم
١٣٦ ومن شاء فـلـيـغـضـب سـواكـم فـلا إذى ... إذا كـنـتـم عـن عـبـدكـم قـد رضـيـتـمُ
١٣٧ وعقبى اصطباري في هـواكـم حـمـيـدة ... ولـكـنـهـا عـنـكـم عـقـابٌ وَمَـأْثَـمُ

---

(١٣٠) وماء الحياة بلا شك هو شريعة الله عز وجل.

(١٣١) يعني هل تبدو أعلامها - أي علاماتها - بعد ما سفت على ربعها تلك السوافي فتعلم، «**وهل**» هنا للتمني.

(١٣٢-١٣٣) يقول: «**وهل أفرشن خدي ثرى عتباتهم خضوعا لهم...**» يعني هل أَصِل بالذل - والمراد: بالذل لله عز وجل - وأذل لهم وأضع خدي كيما يرقوا ويرحموا ؛ لأن من تواضع لله عز وجل فإنه أقرب الناس إلى رحمة الله عز وجل، يقول : «**وهل أرمين نفسي طريحاً ببابهم وطيرُ منايا الحب فوقي تَحوَّم**» هذا أيضاً للتمني، وأتمنى أن أصل إلى هذا الحال.

(١٣٤) يعني يتأسَّف أنّ الحياة تفنى وتنقضي وما زلتم تعتبون عليّ، أي: تلومونني فيما أفعل.

(١٣٧) المعنى : أنني صبرت، وتصبّرت في هواكم ومحبتكم والميل إليكم فإني أرى ذا حميداً «**ولكنها عنكم عقاب ومأثم**» المعنى : أنني لو صبرت عنكم لكنت آثماً ومعذباً، لكنني أرجو أن تكون العاقبة حميدة.

١٣٨ وما أنا بالشاكي لما ترتضونه ولكنني أرضى به وأُسلِّمُ
١٣٩ وحَسْبِيْ انْتِسَابي مِنْ بعيدٍ إليكمُ أَلا إنَّه حظٌ عظيمٌ مُفَخَّمُ
١٤٠ إذا قِيْل هذا عبدُهم ومُحبُّهم تهلَّلَ بشْراً وجهُه يَتَبَسَّمُ
١٤١ وهَاهُو قد أَبْدى الضراعةَ سائلاً لكُمْ بلسانِ الحالِ والقالُ مُعْلَمُ
١٤٢ أحبَتَه عطفاً عليه فإنه لفي ظَمَأٍ والموردُ العذبُ أنتمُ
١٤٣ فَيا ساهِياً في غمرةِ الجهلِ والهوى صَرِيعُ الأمانِي عن قريبٍ سيندَمُ

---

(١٣٨) يعني أنكم إذا أوقعتم بي شيئاً رضيتموه لي فإنني لا أشكو، ولكن أرضى وأسلم، وهكذا المؤمن يرضى لقضاء الله وقدره ولا يشكوه لأحد.

(١٣٩) نعم؛ إذا قيل: عَبْدُ الله، ونسب الإنسان إلى ربه فهذا أفضل، ولهذا قال المغرمُ بمعشوقته:

لا تدْعُني إلا بيا عَبْدَها فإنه أشرف أسمائي

(١٤٠- ١٤١) يعني أنه إذا قيل: إنّ هذا عبد آل فلان، ومرادُه إذا قيل: أنه عبد لله؛ تهلَّلَ وجهه بِشْراً يبتسم **«وها هو قد أبدى الضراعة»** - وهي شدة الطلب والإلتجاء - **«سائلاً لكم بلسانِ الحال والقال معلم»** «لسان الحال» هو ما يعبر عنه الفعل، ولسان المقال هو ما يعبر عنه اللسان.

(١٤٢) «أحبته» يعني يناديهم يقول: يا أحبتَه، اعطفوا عطفاً عليه فإنه لفي ظمأ، والمورد العذب أنتم.

(١٤٣) الآن بدأ يوجه المؤلف الخطاب لغيره للنصيحة، وهذا النداء ينادي به المؤلف ساهيا غير معين، ولهذا نصبه، ينادي من كان ساهيا في هاتين الغمرتين، غمرة الجهل، وغمرة الهوى، وعليهما تدور الفتنة؛ لأن الفتنة إما فتنة شبهة منشأها الجهل، أو شهوة منشأها

١٤٤ أَفِقْ قد دنى الوقتُ الذي ليس بَعدَه   سوى جنةٍ أو حرِّ نارٍ تَضَرَّمُ
١٤٥ وبالسنةِ الغراءِ كُنْ متَمسكاً   هي العروةُ الوثقى التي ليس تُفْصَمُ

الهوى، فإن الإنسان قد يكون جاهلا فيضل، وقد يكون عالما لكنه لا يريد الحق فيضل أيضاً.

«**صريع الأماني عن قريب سيندم**» بمعنى مصروع الأماني يعني التي صرعته، والأماني: هي أن يمني الإنسانُ نفسه ما يشتهي مع عدم فعل الأسباب، يقول: سيكون لي كذا، سيكون لي كذا، سيغفر لي ربي وما أشبه ذلك، مع عدم فعل الأسباب، أما الأماني مع فعل الأسباب فإنها من حسن الظن بالله، وحسن الظن بالله واجب لكن الأماني بدون فعل الأسباب هي كما قال العامة: الأماني رأس مال المفاليس، والمفاليس الذين ليس عندهم شيء، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[١].

(١٤٤) ويعني بذلك الموت فإنه وإن بعد فهو قريب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[٣]، ومن الأمثال السائرة: كلُّ آت قريب، فالوقت الذي ليس بعده إلا الجنة أو النار هو قريب من كل أحد، فعليك أن تحرص على مبادرة الزمن.

(١٤٥) «**السنة**» هي ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام من قول أو

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت (٢٤٥٩)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٠)، وأحمد (٤/ ١٢٤).

(٢) سورة الأحزاب آية: ٦٣.

(٣) سورة الأنعام آية: ١٣٤.

١٤٦ تمسكْ بها مسكَ البخيلِ بِمالهِ وعضَّ عليها بالنواجذِ تَسْلَمُ
١٤٧ وَدعْ عنكَ ما قد أحدثَ الناسُ بعدَها فمرتع هاتيك الحوادثِ أَوْخَمُ
١٤٨ وهيئ جواباً عندَما تسمعُ النداء من اللهِ يومَ العرضِ ماذا أَجَبْتُمُ
١٤٩ به رسلي لمّا أتوكُم فمَنْ يَكُنْ أجابَ سِواهُم سوف يَخزَى ويَنْدَمُ

فعل أو إقرار، تمسكْ بها، عضَّ عليها بالنواجذ فإنها هي الغراء البيضاء النقية من كل شبهةٍ وشهوة.

(١٤٦) لو سُئِلنا : ما أشد تمسكٍ على وجه الأرض؟ قلنا : تمسك البخيل بالمال، فالبخيل لا يمكن أبدا أن يفرط في شيء من ماله، وما أجمل تشبيه المتنبي ! حيث قال :

بليتُ بلى الأطلالِ إنْ لم أقِفْ بها

وقوفَ شحيحٍ ضاع في التُرْبِ خاتمُه

فالشحيح الذي ضاع في الترب خاتمه، لا يسهل عليه الذهاب بل ولا يذهب أبدا وإنما يبحث في التراب، ولو أمكن لفتت كلَّ ذرة من التراب لعل خاتمه يوجد فيها. فالمؤلف - رحمه الله - يقول: «**تمسك بها مسكَ البخيل بماله**» وهذا من باب التشبيه، وإلا فلا سواء بين من تمسك بالسنة والبخيل ولا بين المال وبين السنة.

(١٤٧) صدق - رحمه الله - اترك ما أحدثه الناس ؛ لأن كل محدثةٍ بدعة وكلّ بدعةٍ ضلالةٌ، فمرتع الحوادث وخيم يضر ولا يفيد.

(١٤٨- ١٤٩) الله أكبر!يوم القيامة يقول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ماذا أجبتم المرسلين؟ أجبتم بالطاعة

---

(١) سورة القصص آية : ٦٥.

١٥٠ وخُذْ من تُقَى الرحمن أعظَمَ جُنَّةٍ ليومٍ به تبدُو عياناً جَهَنَّمُ

والسمع، أو بالمخالفة والعصيان؟ فإن كنت أجبت الرسل فقد سعدت، وإن كنت أجبت سواهم فيقول المؤلف: «**فسوف يخْزى ويندم**» - والعياذ بالله - والذين يسيرون وراء البدع والمبتدعين، وراء كبرائهم وزعمائهم بما يخالف السنة والمرسلين سوف يخزون يوم القيامة ويندمون، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾[(١)].

(١٥٠) والجُنة ما يستتر به المقاتل في القتال عن سهام الأعداء، «**ليوم به تبدو عيانا جهنم**»؛ لأنه يؤتى بها أمام العالم وهي تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك - منظر عظيم مهيل-، ثم إذا ألقي فيها أهلها ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾[(٢)]، تشهق كأنها في أشد ما يكون من التشوف والتشوق إليه ﴿وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[(٣)]، تميز يعني تتقطع، والإنسان إذا امتلأ غيظاً امتلأ حتى تقول: يكاد يتفسخ جلده، فهي تكاد تتميز من الغيظ ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾[(٤)]، لا سؤال استرشاد بل سؤال توبيخ ﴿... أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ

---

(١) سورة البقرة آية: ١٦٦ - ١٦٧.
(٢) سورة تبارك آية: ٧.
(٣) سورة تبارك آية: ٧ - ٨.
(٤) سورة تبارك آية: ٨.

١٥١ ويُنْصَبُ ذاك الجسرُ من فوقِ مَتْنِهَا فـهَـاوٍ وَمَـخْـدوشٍ وَنَـاجٍ مُـسلَّـمُ
١٥٢ ويـأتـي إلـهُ الـعـالـمـيـنَ لـوَعْـدِهِ فـيفْـصِـلُ ما بـيـنَ العـبادِ وَيَـحْـكُـمُ
١٥٣ ويـأخـذ لـلـمـظـلـوم ربُّـك حـقَّـه فـيـا بُـؤسَ عـبـدٍ لـلـخـلائقِ يَـظْـلِـمُ

نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] هذا الندم لا ينفع الآن، وإنما ينفع لو كان في دار العمل، أما في دار الجزاء فلا ينفعنا إلا ما نعمله في هذه الدنيا ونستعد به للآخرة.

(١٥١) الجسر: الصراط ينصب على متن جهنم، أدق من الشعر، وأَحَدُّ من السيف، يمر الناس فيه على قدر أعمالهم؛ فمنهم من ينجو ويسلم، ومنهم الهاوي في جهنم، ومنهم المخدوش يمشي أحيانا ويحبو أحياناً، فمن كان مسرعاً في مرضاة الله في الدنيا كان مسرعاً على الصراط، ومن كان بطيئا كان بطيئا، ومن زلت به قدمه في الدنيا زلت به قدمه في الآخرة.

(١٥٢ - ١٥٣) يأتي الله عز وجل للفصل بين عباده بعد أن يشفع النبي ﷺ إلى ربه في خلقه، فإن الناس يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون فيتكلم بعضهم مع بعض: أطلبوا من يشفع لنا إلى ربنا ليريحنا من هذا الموقف، فيأتون إلى آدم ثم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى، ولا يجدون من هؤلاء من يشفع على اختلافٍ بينهم في أعذارهم، إلا عيسى فلا يقدم عذرا لكنه يبين من هو أولى بها يقول: اذهبوا إلى محمدٍ، عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهذا داخل في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2]،

(١) سورة تبارك آية: ٨ - ٩.
(٢) سورة الإسراء آية: ٧٩.

١٥٤ وَيُنْشَرُ ديوانُ الحسابِ وتُوْضَعُ ... الموازينُ بالقِسطِ الذي ليسَ يُظْلَمُ
١٥٥ فلا مُجْرِمٌ يَخْشَى ظَلَامَةَ ذَرَّةٍ ... وَلا مُحْسِنٌ من أجله ذاك يُهْضَمُ

فيأتون إلى رسول الله صلى الله عيه وسلم فيقول: أنا لها، ثم يذهب ويستأذن من الله أن يشفع فيأذن الله له، ثم يقال له: ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع، فيشفع إلى الله أن يقضي بين عباده، فيأتي الرب - عز وجل - للقضاء بين عباده ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(١)، الملائكة كلها صافة، ملائكة كل سماء ينزلون، فينزل ملائكة السماء الدنيا ويحيطون بالخلق ثم الثانية من ورائهم ثم الثالثة من ورائهم إلى السابعة، ثم ينزل الرب - عز وجل - فيأتي للقضاء بين عباده، نزولاً لا نعرف كيفيته، ولكن نؤمن به ونعرف معناه، أما الكيفية فلا يمكن أن نعرفها؛ لأنه تابع لذات الله، وذات الله تعالى غير معلومة الكيفية فكذلك صفاته، فيفصل بين العباد ويقضي للظالم من المظلوم. ثم ندب المؤلف - رحمه الله - البؤس للعبد الذي يظلم الخلائق؛ لأنه يؤخذ من حسناته ويعطى للمظلوم، فإن بقي من حسناته شيء وإلا أُخذ من سيئات المظلومين فطرحت عليه، ثم طرح في النار، ثم ذكر المؤلف - رحمه الله - نشر الدواوين ووضع الموازين.

(١٥٤ - ١٥٥) الدواوين: هي الصحف التي كتب فيها ما عمله الإنسان، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٢)، قال الحسن البصري رحمه الله: لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك، هذا هو الإنصاف، فأنت تحاسب نفسك.

---

(١) سورة الفجر آية: ٢٢.
(٢) سورة الإسراء الآيتان: ١٣ - ١٤.

. . . .

وكذلك أيضاً توضع الموازين، والموازين جمع ميزان، فهل هي حسية أو معنوية؟ الجواب: هي حسية، ميزان حسي له كفتان ترجح إحداهما بالأخرى، والذي يوزن هو الأعمال يجعلها الله - سبحانه وتعالى - أجساماً فتوضع في الموازين، كما جعل الله الموت - وهو معنى من المعاني - جعله جسماً فإنه يؤتى به يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ،ويقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيشرئبون ويطلعون، ويقال لأهل النار: يا أهل النار فيشرئبون ويطلعون، فيقال للجميع: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويقال: يا أهل النار خلود ولا موت، فيزداد أهل الجنة سرورا إلى سرورهم، ويزداد أهل النار غماً إلى غمهم - نسأل الله أن يعيذنا من النار -، فالذي يوزن هي الأعمال ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان** - يعني الكلمتين -: **سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[2]، وقال بعض أهل العلم: إن الذي يوزن الصحف، صحف الأعمال ؛ لأن الترمذي روى حديثاً عن رسول الله ﷺ: «**أنه يؤتى برجل تعرض عليه**

(١) سورة الزلزلة آية: ٧ - ٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٧٥٦٣)، ومسلم في كتاب الذكر، باب فضل التهليل والتسبيح (٢٦٩٤).

١٥٦ وتشهدُ أعضاءُ المُسيءِ بِما جَنَى كذاك على فيه المهيمن يختم

أعماله في صحفه فيوضع له سجلات مد البصر كلها أعمال سيئة حتى إذا رأى أنه هلك قيل له: إن لك عندنا حسنة، فيؤتى ببطاقة ليست بشيء بجانب هذه السجلات، فيقول: ما شأن هذه البطاقة إلى هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تظلم، ثم توضع البطاقة في كفّة، والسجلات في كفّة، فترجح بهن البطاقة»[(١)] وهذا يدل على أن الذي يوزن صحف الأعمال، وقال بعض العلماء: الذي يوزن العامل، واستدلوا بما ثبت في الصحيح أن ابن مسعود ﵁ قام إلى شجرة أراك - المساويك - وكانت الريح شديدة فجعلت تُكفّئ عبدالله بن مسعود فقال النبي عليه الصلاة والسلام - وهم ينظرون إلى دقة ساقيه -: «**إنهما في الميزان مثل جبل أحد**»[(٢)] وهذا يدل على أن الذي يوزن العامل، ولكن لا شك أن نصوص القرآن وصحيح السنة يدل على أن الذي يوزن العمل نفسه، وتكون هذه إما أنها باعتبار أشخاص معينين، أو أن بعض الناس يوزن عمله، وبعضهم يوزن هو نفسه وبعضهم يوزن صحائف أعماله.

(١٥٦) يوم القيامة يحاول المشرك أن يجحد، فيقولون ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[(٣)]، يحلفون ويظنون أنهم إذا حلفوا في الآخرة نجوا كما ينجون في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[(٤)]

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي في باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٧٧٥)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رضي الله عنه يوم القيامة (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٢١).

(٣) سورة الأنعام آية: ٢٣.

(٤) سورة الأنعام آية: ٢٤.

١٥٧ فيا ليتَ شِعْري كيفَ حالُك عندَما تَطَايَرُ كُتْبُ العالمين وتُقْسَمُ
١٥٨ أتأخذُ باليُمنى كتابَك أم تَكُنْ بأُخْرى وراءَ الظهر منك تُسَلَّمُ
١٥٩ وَتَقرأُ فيه كلَّ شيءٍ عمِلتَه فَيَشْرُقُ منك الوَجْهُ أو هو يُظْلِمُ
١٦٠ تقولُ كِتابِيْ فاقرؤوه فإنَّه يُبشّر بالفوز العظيمِ وَيُعْلِمُ
١٦١ فإنْ تكُنِ الأخرى فإنَّكَ قَائِلٌ أَلا ليتني لم أوتَه فهو مُغْرَمُ

ثم يختم على أفواههم - والعياذ بالله - فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم وألسنتهم بما كانوا يعملون، تشهد أيديهم بما عملوا باليد، وأرجلهم بما عملوا بالمشي، وجلودهم بما عملوا باللمس، وألسنتهم بما عملوا بالنطق، هل يبقى عذر بعد ذلك ؟! لا ؛ ينكرون على جلودهم ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١).

(١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١) هذه حال الإنسان عندما يعطى كتابه، إما باليمين وإما بالشمال؛ فإن أعطي باليمين افتخر وفرح وسُرّ وقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ﴾ (٢)، كما يعرض الإنسان ورقة نجاحه على الناس، انظروا إلى ورقة النجاح، أنا ناجح ودرجاتي جيدة وما أشبه ذلك، فهو يوم القيامة يفرح ويقول للناس: هاؤم اقرؤوا كتابيه. أما من أوتي كتابه بشماله فهو بالعكس - والعياذ بالله - يقول: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ (٣)، ليتني ما علمت، ليتني ما أوتيت كتابي لكن هذا لا ينفعه، فحينئذ يسفر الوجه، وجه من أخذ كتابه بيمينه ويظلم الوجه، وجه من أخذه بشماله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

---

(١) سورة فصلت آية: ٢١.
(٢) سورة الحاقة آية: ١٩.
(٣) سورة الحاقة آية: ٢٥ - ٢٦.

١٦٢ فبادِرْ إذاً مادامَ في العمرِ فسحةٌ وعذرُك مقبولٌ وصرْفُك قَيِّمُ
١٦٣ وجِدَّ وسَارِعْ واغتَنِمْ زمنَ الصِّبَا ففي زَمَنِ الإمكانِ تَسْعَى وتغنمُ
١٦٤ وسِرْ مُسرعاً فالسيلُ خلفَك مسرعاً وهَيْهاتَ ما مِنْهُ مفرٌ ومهزمُ
١٦٥ فهنَّ المنايا أيُّ وادٍ نَزَلْتَه عليها القدومُ أو عليكَ سَتَقْدُمُ

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1]، فالمؤلف يقول: «**يا ليت شعري كيف حالك**» «**ليت شعري**» يعني ليت شعوري يعني: ليتني أشعر ماذا تكون حالك؟! والجواب: لو شعرت بحاله لشعرت بأمر عظيم سروراً أو حزناً.

(١٦٢) «**فبادر إذاً**» يعني الآن مادام في العمر فسحة، وعذرك مقبول، وصرفك قيّم.

(١٦٤) يعني سر مسرعاً فإن السيل وراءك، والإنسان إذا علم أن السيل وراءه يسرع ويفر منه.

(١٦٥) صدق - رحمه الله - ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾[2]، أيُّ وادٍ تنزله فإنك ستنزل عليها أو هي تنزل عليك، أحياناً يفر الإنسان من الموت فإذا به يموت في فراشه فيكون قد نزل عليها، دائماً يفر وإذا به يموت بفراره، وهذا كثيراً ما يكون لا سيما في الخطوط السريعة، ينزل من السيارة ويفر عن وسط الخط ليكون بجانبه فإذا بسيارة أخرى تلقفه فيكون قد فر من المنية إلى المنية فتنزل عليه، فإن لم تكن عليها نازلاً فإنها سوف تنزل عليك وإن طالت بك الحياة.

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٦.
(٢) سورة النساء آية: ٧٨.

١٦٦ فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها منازلُك الأولى وفيها المخيمُ

---

(١٦٦) «حيَّ» أقبل و «جنات عدن» جنات الإقامة، وسميت بذلك لأن المقيم فيها لا يبغي عنها حولاً، في هذه الدنيا في أي قصر نزلت ترى قصراً أحسن منه فتقول: ليت هذا لي وتطلب الرحيل إنْ تيسّر لك، لكن في الجنة أبداً لا تَتَمنى منزلةً غير منزلتك لا يبغون عنها حولاً، ولا يرى أن غيره أَنْعَمَ منه، ولهذا سميت جنات عدن؛ أي إقامة، فلا موت ولا مرض ولا سآمة ولا نظر إلى الغير.

يقول: «منازلك الأولى» كيف هي المنازل الأولى؟ لأن آدم أخرج من الجنة، وهذا دليل على أن المؤلف - رحمه الله - يرى أن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد، وهذا أحد القولين للعلماء - والخلاف في هذا مشهور - والراجح أنها هي جنة الخلد، ولكن آدم عليه الصلاة والسلام لحكمةٍ أرادها الله - عز وجل - حصلت منه المخالفة فأخرج منها، لكن أتدري أن هذه المخالفة فيها مصلحة لآدم ولبني آدم؟ ولو لم ينزل من الجنة ما صار هناك ابتلاء وامتحان، ولكان كل الناس في الجنة إن كان الله قد قدر له ذرية، ولو لم ينزل ما حصل له هذا الوصف العظيم ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾[1]، الاجتباء والاصطفاء حصل بعد أن عصى ربه فتاب، وهذه منزلة رفيعة حصلها بعد ذلك فالله عز وجل حكيم فيما قدره على آدم، فكان مصلحة له ومصلحة لذريته.

---

(١) سورة طه آية: ١٢١ - ١٢٢.



١٦٧ ولكننا سَبْيُ العدوِ فهَلْ تُرَى ... نعودُ إلى أوطانِنا فنُسَلِّمُ

١٦٨ وقد زَعَمُوا أنَّ الغريبَ إذا نأى ... وشَطَّتْ به أوطانُه فهو مُؤلَمُ

١٦٩ وأيُّ اغترابٍ فوقَ غربَتِنا التي ... لها أضحتِ الأعداءُ فينا تَحَكَّمُ

---

(١٦٧) العدو الذي سبانا هو الشيطان الذي تسبب بإخراج آدم من الجنة، لأنه - الخبيث - وسوس لآدم وساوس عظيمة ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(١)، أتى بإقسامات عظيمة يقول: أنا ناصح ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ و ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾(٢) سبحان الله! - والإنسان بشر - بهذه الإقسامات العظيمة وهذا الغرور وهذه الزخرفة شجرة الخلد وملك لا يبلى حصل ما حصل، فكان الله على كل شيء قديراً.

١٦٨ - ١٦٩) يعني: زعم الناس حقيقة، والزعم هنا ليس معناه الكذب، والغريب إذا بعد وشطت به أوطانه يتألم ولا يقرّ له قرار حتى يرجع إلى وطنه، فهل نحن غرباء عن وطننا الأول الجنة؟ الجواب: نعم غرباء، وتتلقفنا الأعداء ولهذا قال: «**أيُّ اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحكم**» قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمر - بعد أن أخذ بمنكبه أو بمنكبيه -: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»(٣)، لا تقل: أعملُ - إن شاء الله - في

---

(١) سورة الأعراف آية: ٢١.

(٢) سورة طه آية: ١٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) (٦٤١٦).

١٧٠ وحيَّ على روضاتِها وخيامِها وحيَّ على عَيْشٍ بها لَيْسَ يُسأَمُ
١٧١ وحيَّ على يوم المزيدِ فإنَّه لموعدُ أهلِ الحُبِّ حينَ يُكَرَّمُ
١٧٢ وحيَّ على وادٍ هنالك أَفْيَحٍ منابرُ من نورٍ لمن هو مُكْرَمُ
١٧٣ ومِنْ حَوْلِها كثبانُ مِسْكٍ مَقَاعِدٌ لمنْ دونَهم هذا العطاءُ المُفَخَّمُ
١٧٤ يرونَ به الرحمنَ جلَّ جلالَه كَرُؤْيَةِ بَدْرِ التم لا يُتَوهَّمُ

المساء ففيه وقت، أتوب إلى الله في المساء؛ لا تقل هكذا، إذا قلت هكذا ذهب عنك الوقت، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك، ما دمت صحيحاً اغتنم وقتك، يعني ربما تمرض، وما دمت حيا اغتنم وقتك؛ فإنك ستموت، وكل حي سيموت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

(١٧٠) يعني أقبل إلى جنات عدن، روضاتها وخيامها، وعيش لا يسأم فيه ولا يمل، روضاتها لها غراس، هي : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، كل واحدةٍ فيها شجرة بدون تعب ولا سأم، وغرس ناجح لا يموت. نحن الآن نتكلف على غرس شجيرة صغيرة في إحضارها، وفي تهيئة المكان لها، وفي سقيها، وربما يأتها إعصار فيحرقها، وربما نموت قبل أن تصلح فتفوت، أما الجنة - نسأل الله أن يجعلنا من أهلها - فليست كذلك.

(١٧١) يوم المزيد هو اليوم الذي يلتقي فيه أهل الجنة مع الله سبحانه وتعالى، فيزدادون سروراً ونعيماً وطيباً إلى ما هم فيه من النعيم والطيب.

---

(١) سورة الرحمن آية: ٢٦- ٢٧.

١٧٥ أو الشمسِ صَحْواً ليس مِن دون أفقها أفقها سحابٌ ولا غَيْمٌ هناك يُغَيِّمُ

---

(١٧٥) اللهم لا تحرمنا هذا المنظر ؛ لهم يوم يسمى يوم المزيد، وقد جاء في الآثار أنه يوم الجمعة[1] ، وأنَّ وقت اللقاء وقت صلاة الجمعة، يلاقون الله سبحانه وتعالى وينظرون إليه كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر، لا أنّه هو كالبدر بل هو أعظم من أن يكون له مثيل، لكن الرؤية تحقق كما تتحقق رؤية القمر ليلة البدر، أو الشمس صحوا ليس دونها سحاب كما أخبر بذلك النبي ﷺ وكما جاءت بذلك الآيات القرآنية، ولقد حُرم لذة الصدق في الدنيا من أنكر هذه الرؤية، وقال : إنها رؤية الثواب وليست رؤية الرب - عز وجل -، أو قال : إنها كناية عن العلم اليقيني الذي يكون في قلوبهم، ولقد حرم لذة التصديق ويُخْشى أن يحرم لذة التحقيق - والعياذ بالله - يوم القيامة؛ لأن الآيات فيها واضحة والأحاديث فيها متواترة كما قيل :

مما تواتر حديث مَنْ كذب ومَنْ بنى لله بيتا واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ومسح خفَّين وهذي بَعْضُ

فالآيات ظاهرة واضحة، والأحاديث متواترة متكاثرة، تَلَقّاها أهلُ العلم والإيمان بالتصديق والإيقان وليس فيها إشكال، فيرون الله - جل جلاله - كما يرون القمر، ولكن هل يدركونه عند رؤيته ؟ الجواب: لا ، لا يدركونه؛ لأن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2] وكما أننا لا نحيط به

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠)، وأبو يعلى في مسنده (٢٠٦)، والطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (٨١ - ٤٧٦)

(٢) سورة الأنعام آية: ١٠٣.

١٧٦ فبيناهُمُ في عيشِهم وسرورِهم وأرزَاقُهم تجري عليهم وتُقْسَمُ
١٧٧ إذا هُمْ بنورٍ ساطعٍ قد بدا لهم وقد رفعُوا أبصارَهم فإذا هُمُ
١٧٨ بربهِم مِنْ فَوقِهم قائلٌ لهم سلامٌ عليكُم طِبْتُمُ ونَعِمْتُمُ

علماً فلا نحيط به رؤية لكننا نراه، وها نحن نرى الشمس ولكن هل نحن نحيط بها ؟ لا ؛ ما نحيط بها، إذاً فالله - عز وجل - يُرى ولكن لا يحاط به، نراه كيف يشاء سبحانه وتعالى لكن بدون إحاطة.

(١٧٧ - ١٧٨) إذا : الفجائية، يعني في هذا الوقت يفاجؤون

بنورٍ ساطعٍ قد بدا لهم وقد رفعُوا أبصارَهم فإذا هُمُ

يعني بينا هم في العيش والسرور والنعيم واللذة البصرية والسمعية والقلبية «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(١) نعيم لا يمكن أن ندركه في الدنيا أبداً، ولا يخطر على قلوبنا، ولا نراه في غيرنا، بينما هم في هذا النعيم إذا هم بنور ساطع قد بدا لهم فيرفعون أبصارهم، ما هذا النور العظيم الذي بدا ساطعاً ؟ فإذا هم بالله - عز وجل - وهو فوق «**سلام عليكم طبتُمُ ونعمتُمْ**» ما أحلى هذا الكلام ! وما أجلّ هذا الصوت! يقول الرب - عز وجل -: سلام عليكم، وهل هذا خبر أو دعاء؟ هذا خبر، لأن الله لا يدعو أحداً بل هو المدعو، إذاً عليكم السلام من كل الآفات، وبعد السلام أيضاً طيب : «**طبتُمُ ونعمتم**» طبتم في القلب والبدن والسرور ونعمتم كذلك.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٥.

١٧٩ سَلامٌ عليكُم يسمَعُون جميعُهم بآذانهم تسليمَه إذْ يُسَلِّمُ
١٨٠ فبالله ما عذر امرئٍ هو مؤمنٌ بهذا ولا يسعى له ويُقَدِّمُ
١٨١- ولكنما التوفيقُ بالله إنّه يخُصّ به من شاء فضلاً ويُنْعِمُ

(١٨٠ - ١٨١) اللهم إنا نسألك أن توفقنا لذلك إنك جواد كريم.

والحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .





فهرس الموضوعات


رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض

ردمك : ٦-٠٠-٨٠٣٦-٦٠٣-٩٧٨